الشَّرحُ المُهَذَّبُ

عَلَى

العَقِيدَةِ الوَاسِطِيَّةِ

شرح وتهذيب

أبي عبد العزيز

تركي بن مسفر بن هادي مجلي العبديني

مقدمة الشرح والتهذيب

الْحَمد لله، المبديء المعيد، الفعال لما يُرِيد، ذِي الْعَرْش الْمجِيد، والبطش الشَّديد، الْهَادِي صفوة العبيد إِلىٰ الْمنْهَج الرشيد، والمسلك السديد، الْمُنعم عَلَيْهِم، والسالك بهم إِلَىٰ اتِّبَاع رَسُوله الْمُصْطَفىٰ، واقتفاء آثَار صَحبه الأكرمين، الْمُكرمين بالتأييد والتسديد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فهذا شرح هو في الحقيقة تهذيب واختيار لعبارات سهلة رشيقة من عبارات سلفنا الصالح، وعلمائنا الأفاضل، أهل التحقيق والإجادة، شرحت به العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية، ورصفته، وتممته بنقولات وجمل رائقات، يستعين بها مطالعه علىٰ فهم الآيات والأحاديث التي سردها شيخ الإسلام في هذه العقيدة، وقد شرحت الواسطية بشروح كثيرة في كل شرح مميزاته، وقد استفدت من كثير منها، وسأذكر ثبتًا بالمراجع التي استفدت منها في آخر الشرح – إن شاء الله – مكتفيًا به عن التنصيص عند كل نقل.

وقد حاولت أن أفيد الطالب بغالب تلك الفوائد المسطرة في تلك الشروح ملخصة، ومهذبة، ومزيدة بفوائد من كتب أخرىٰ غير تلك الشروح من كلام شيخ الإسلام غالبًا ومن كلام غيره كابن القيم وهكذا غير واحد من العلماء..

أسأل الله أن ينفع بها كاتبها، وقارئها، ومطالعها، ودارسها، والمستفيد منها.

ترجمة موجزة لشيخ الإسلام ابن تيميَّة

اسمه ونسبه:

هو: أحمد بنُ عبد الحليم بنِ عبد السلام بن عبد الله بن تيمية، النميري نسبًا، الحرَّاني مولدًا، ثم الدمشقي منشأً، المَكْنىٰ بأبي العباس، والملقب بـ «شيخ الإسلام»، والمعروف بـ «ابن تيمية».

مولده ونشأته وطلبه للعلم:

وُلِدَ ابن تيمية رحمه الله بحَرَّان يوم الاثنين ١٠ ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ، ونشأ بها، ثم هاجر مع أسرته إلىٰ دمشق عام ٦٦٧ هـ فرارًا من ظلم التتار.

وقد نشأ رحمه الله في أسرة علمٍ ودين وفضل، فآباؤه وأجداده وإخوانه كانوا من العلماء المعروفين.

حفظ القرآن الكريم في صغره، وأخذ العلم عن عددٍ من العلماء، فأتقن التفسير والحديث والفقه والأصول والعربية وغيرها من العلوم في سِنٍّ مُبَكِّرة، وناظر واستدل وهو دون البلوغ، وأفتىٰ وأَلَّفَ في سن السابعة عشرة، ودرَّس في الحادية والعشرين من عمره، بعد وفاة والده.

بعض شيوخه:

أخذ ابن تيمية رحمه الله عن أكثرَ مِن مائتي شيخ، منهم:

١ - أبو محمد عبد الرحيم بن محمد العلثي ثم البغدادي (ت:٦٨٥ هـ).

٢ - أبو إسحاق إبراهيم بن علي الصالحي الواسطي الحنبلي (ت:٦٩٢ هـ).

٣ - المقدسي أحمد بن كمال الدين أحمد بن نعمة الشافعي (ت:٦٩٤ هـ).

٤ - أبو البركات المنجا بن عثمان التنوخي الدمشقي (ت:٦٩٥ هـ).

٥ - أبو عبد الله محمد بن عبد القوي بن بدران المقدسي(ت:٦٩٩ هـ).

٦ - أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الشيباني الآمدي (ت:٧٠٤ هـ).

بعض تلاميذه:

أخذ عن شيخ الإسلام عددٌ كبير من العلماء، منهم:

١ - أبو عبد الله محمد بن المنجا بن عثمان التنوخي (ت:٧٢٤ هـ).

٢ - يوسف بن عبد المحمود البتي الحنبلي، المقرئ الفقيه (ت:٧٢٦ هـ).

٣ - يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج المزي (ت:٧٤٢ هـ).

٤ - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي الصالحي (ت:٧٤٤ هـ).

٥ - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان، الذهبي (ت:٧٤٨ هـ).

٦ - أبو حفص عمر بن علي بن موسىٰ البزار (ت:٧٤٩ هـ).

٧ - أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب؛ ابن القيم (ت:٧٥١ هـ).

٨ - أبو العباس أحمد بن حسن، ابن قاضي الجبل (ت:٧٧١ هـ).

٩ - أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت:٧٧٤ هـ).

عقيدته ومذهبه:

شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من أئمة المنهج السلفي، الذين نشروا معتقد أهل السنة والجماعة، ودافعوا عنه، وخيرُ شاهد علىٰ ذلك كتبُه في العقيدة التي تلقَّاها العلماء سلفًا وخلفًا بالقبول.

وأما مذهبه الفقهي فهو ينتسب إلىٰ مذهب الحنابلة في الجملة، لكنه لم يتعصب له، بل خالفه في كثير من اختياراته، ويؤكد ذلك قولُه في مجموع الفتاوىٰ: «مع أني في عمري إلىٰ ساعتي هذه لم أَدْعُ أحدًا قط في أصول الدين إلىٰ مذهب حنبلي وغير حنبلي، ولا انتصرتُ لذلك، ولا أذكره في كلامي، ولا أذكر إلا ما اتفق عليه سلفُ الأمة وأئمتُها».

مؤلفاته وآثاره العلمية:

ترك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ثروة علمية كبيرة قيمة، ضَمَّنَهَا مؤلفاتِه وآثارَه، منها ما وصل إلينا ومنها ما لم يصل، ولكن المصادر التي ترجمت له، والعلماء الذين نقلوا عنه في كتبهم احتفظوا لنا بأسماء بعضها، وفيما يلي ذكر بعضها:

١) الإخنائية، أو الرد علىٰ الإخنائي. ٢) الاستقامة. ٣) الإيمان.

٤) إقامة الدليل علىٰ إبطال التحليل.

٥) اقتضاءُ الصراط المستقيم مخالفةَ أصحاب الجحيم.

٦) بغية المرتاد في الرد علىٰ المتفلسفة والقرامطة والباطنية.

٧) بيان تلبيس الجهمية. ٨) التحفة العراقية. ٩) التدمرية. ١٠) التسعينية.

١١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح. ١٢) الحسبة في الإسلام.

١٣) درء تعارض العقل والنقل. ١٤) الرد علىٰ المنطقيين.

١٥) الرسالة العرشية. ١٦) رفع الملام عن الأئمة الأعلام.

١٧) شرح العقيدة الأصفهانية. ١٨) شرح حديث النزول.

١٩) شرح عمدة الفقه. ٢٠) الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول.

٢١) الصفدية. ٢٢) العبودية. ٢٣) العقيدة الواسطية. ٢٤) الفتاوىٰ الكبرىٰ.

٢٥) الفتاوىٰ المصرية. ٢٦) الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ.

٢٧) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

٢٨) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة. ٢٩) القواعد النورانية الفقهية.

٣٠) مجموع الفتاوىٰ. ٣١) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية. ٣٢) النبوات. ٣٣) نقد مراتب الإجماع. ٣٤) نقض المنطق.

٣٥) الواسطة بين الحق والخلق.

مكانته العلمية، وثناء العلماء عليه:

لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مكانة عظيمة عند الناس؛ ولهذا لهِج العلماء - قديمًا وحديثًا - بالثناء عليه، وفيما يلي ذكر لبعض أقوالهم:

قال ابن دقيق العيد (ت:٧٠٢ هـ): «لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلًا العلومُ كلها بين عينيه، يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريد».

وقال المِزِّي (ت:٧٤٢ هـ): «ما رأيت مثله، ولا رأىٰ هو مثلَ نفسه، وما رأيت أحدًا أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ولا أتبعَ لهما منه».

وقال الذهبي (ت:٧٤٨ هـ): «ما رأيت أحدًا أسرعَ انتزاعًا للآيات الدالة علىٰ المسألة التي يوردها منه، ولا أشدَّ استحضارًا لمتون الأحاديث وعزوِها إلىٰ الصحيح أو المسند أو إلىٰ السنن منه، كأن الكتاب والسنن نصب عينيه وعلىٰ طرف لسانه، بعبارة رشيقة، وعين مفتوحة، وإفحام للمخالف».

وقال ابن كثير (ت:٧٧٤ هـ): «قلَّ أن سمع شيئًا إلا حفظه ... وما قُطِع في مجلس، ولا تكلم معه فاضلٌ في فن من الفنون إلا ظن أن ذلك الفن فنه، ورآه عارفًا به متقنًا له».

وقال أبو البقاء السبكي (ت:٨٤٢ هـ): «ما يبغض ابنَ تيمية إلا جاهل أو صاحب هوىٰ».

محنته:

لقد نال شيخَ الإسلام ابن تيمية رحمه الله صنوفٌ من الأذىٰ، وأنواعٌ من المحن كغيره من المصلحين الذين أوذوا في ذات الله من العلماء والأئمة، وقبلهم الأنبياء والرسل، وهذه سنة جارية.فمنزلة شيخ الإسلام العالية، وشهرته الكبيرة؛ دفعت خصومه والناقمين عليه إلىٰ إلصاق التهم به، وتأليب الحكام

عليه، حسدًا من عند أنفسهم؛ فكانت النتيجة سجنه رحمه الله سبع مرَّات، كانت الأخيرة منها بقلعة دمشق لمدة عامين وثلاثة أشهر وأربعة عشر يومًا؛ بسبب فتوىٰ له في مسألة شد الرحال إلىٰ قبر النبي صلىٰ الله عليه وسلم زاعمين أنه ينتقص جناب الأنبياء والأولياء، وحاشاه من ذلك.

وفاته:

توفي شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ليلة الاثنين ٢٠ من ذي القعدة سنة (٧٢٨ هـ) بقلعة دمشق بالقاعة التي كان محبوسًا بها.

ينظر ترجمته مفصلة في: العقود الدرية ص (٣٨٥)، وتاريخ الإسلام (٤٩/ ٩٢)، وسير أعلام النبلاء (٢٢/ ٢٨٩)، وتاريخ ابن الوردي (٢/ ٢٧٥)، والأعلام العلية ص (١٦ - ٢٩)، والبداية والنهاية (١٤/ ١٥٦)، والرد الوافر ص (٥٩)، والبدر الطالع (١/ ٦٣)، والجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون ص (٥ - ٧٤٥).

نبذة تعريفية بالعقيدة الواسطية

سبب تأليفها:

سبب تأليف هذه العقيدة، ذكره شيخُ الإسلام نفسه، إذ قال: «هذه كان سبب كتابتها أنه قدِم عليَّ من أرض (واسط) - وهي مدينة بالعراق، بناها الحجاج ين يوسف، وسميت بذلك لأنها وسطٌ بين البصرة والكوفة- بعضُ قضاة نواحيها - شيخ يقال له: (رضي الدين الواسطي) من أصحاب الشافعي - قدم علينا حاجًّا، وكان من أهل الخير والدين، وشكا ما الناسُ فيه بتلك البلاد وفي دولة التَّتَر من غلبة الجهل والظلم ودروس الدين والعلم، وسألني أن أكتب له عقيدة تكون عمدة له ولأهل بيته، فاستعفيتُ من ذلك وقلت: قد كتب الناس عقائد متعددة؛ فخذ بعض عقائد أئمة السنة، فَأَلَحَّ في السؤال وقال: ما أحب إلا عقيدة تكتبها أنت، فكتبت له هذه العقيدة وأنا قاعد بعد العصر، وقد انتشرت بها نسخ كثيرة؛ في مصر؛ والعراق؛ وغيرهما».

سبب تسميتها بالواسطية:

هي نسبة إلىٰ مدينة (واسط) كما في سبب تأليفها المذكور آنفًا، إذ كُتِبَتْ هذه العقيدة لأهلها، وأول من أطلق عليها هذا الاسم شيخ الإسلام نفسه، حيث قال - في حكايته للمناظرة التي حصلت له مع أهل الكلام -: « ... ثم أرسلت من أحضرها ومعها كراريس بخطي من المنزل، فحضرَت العقيدة الواسطية».

تاريخ تأليفها:

أُلِّفت العقيدة الواسطية في حدود سنة (٦٩٢ هـ)؛ لأن شيخ الإسلام قال في حكايته للمناظرة مع أهل الكلام: «أنا أعلم أن أقوامًا يكذبون عليَّ؛ كما قد كذبوا عليَّ غير مرة، وإن أمليت الاعتقاد من حفظي: ربما يقولون كتم بعضه؛ أو داهن وداریٰ، فأنا أحضر عقيدة مكتوبة؛ من نحو سبع سنين قبل مجيء التتر إلىٰ الشام»، يقصد بذلك العقيدة الواسطية، ومجيء التتر كان سنة (٦٩٩ هـ)، فإذا نُقص منها سبع سنين صارت (٦٩٢ هـ).

موضوعها:

اشتملت العقيدة الواسطية علىٰ عدد من موضوعات العقيدة، منها: مسائل الأسماء والصفات، ووسطية أهل السنة والجماعة، ومسائل الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر، وحقوق الصحابة وآل البيت، وكرامات الأولياء، وطريقة أهل السنة في السلوك والعمل، وغيرها من المسائل التي هي من أصول مذهب أهل السنة والجماعة، وقد تخلل هذه المسائلَ بعضُ القواعد الجامعة في العقيدة.

متن العقيدة الواسطية

ومعه الشرح المهذب علىٰ العقيدة الواسطية

قال رحمه الله: بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة متن الواسطية وشرحه

ابتدأ المُصَنِّف هذه الرسالة بالبسملة اقتداءً بالكتاب العزيز، إذ جاءت البسملة في أول سور القرآن؛ واقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم في مكاتباته؛ كما في كتابه لهرقل، ولإجماع المصنفين على ذلك.

«بِسْمِ الله»: (الباء) للاستعانة؛ أراد المُصَنِّف أن يستعين بالله تعالى على تأليف هذه الرسالة، والاستعانة بالله على شؤون العبد العامة والخاصة من أسباب التوفيق والسعادة، فالاستعانة تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد عليه.

وقوله: «الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»: اسمان كريمان لله عز وجل من أسمائه الحسنى يدلان على صفة الرحمة لله جل وعز. والفرق بينهما: أن «الرَّحْمَن»: ذو الرحمة العامة لجميع الخلق. و«الرَّحِيم»: ذو الرحمة الخاصة بالمؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣]. وقال ابن القيم: الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثاني للفعل، فالأول دال على أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته.

الحمد لله الذي أرسلَ رسولَهُ بالهُدىٰ،...............

قوله: «الحَمْدُ لله»: معناها وصف المحمود بأوصاف الكمال، مع المحبة والتعظيم والإجلال، وجميع أوصاف الكمال ثابتة لله تعالىٰ علىٰ أتم الوجوه وأكملها. وما الفرق بين الحَمْد والمَدْح؟

الجواب: قال ابن القيم: «الحمد إخبارٌ عن محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه، بخلاف المدح؛ فإنه إخبار مجرد»؛ ولهذا نجد الفقير يمدح الغني لكن لا يلزم من ذلك حبه، بل يريد منفعته وعطاءه، بخلاف الحمد فهو مرتبط بالحب والتعظيم؛ ولهذا لا يصرف الحمد إلا لله عز وجل، وأما المدح فيكون لله ولغيره.

قوله: «الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ»: (الرسول) لغةً: من بُعث برسالة. وشرعًا: إنسان ذَكَرٌ أُوحي إليه بشرع وأُمِر بتبليغه. فما المراد بالرسول هنا؟ هل المراد محمد صلىٰ الله عليه وسلم أم المرادُ جنس الرسول؟ كلاهما محتمل، فيحتمل أن يكون المراد جنس الرسول، ويحتمل أن يكون المقصود سيد البشر عليه الصلاة والسلام، الذي ختم الله به الأنبياء وفضَّله عليهم وعلىٰ الخليقة.

قوله: «بالهُدَىٰ» الهدىٰ: العلم النافع، والعلم نوعان:

١ - علم نافع. ٢ - علم غير نافع.

فالعلم النافع: هو ما يُقَرِّبُ إلىٰ الله عز وجل، وقد كان صلىٰ الله عليه وسلم يكثر من دعاء: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا».

ودينِ الحقِ؛ ليظهِرهُ علىٰ الدِّين كلِه، وكفىٰ بالله شهيدًا، ....

والعلم غير النافع: وهو ما لا ينفع الإنسان في الآخرة، فكل علم لا يقرب صاحبه إلىٰ الله ولا ينفعه في الآخرة فهو من العلم الذي لا ينفع.

قوله: «وَدِينِ الحقِّ» المراد به العمل الصالح؛ ومِن إطلاقه علىٰ العمل قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]. فبالهدىٰ ودين الحق يحصل صلاح القوة النظرية العلمية، والقوة الإرادية العملية؛ وذلك لأن الهدىٰ يتضمن العلم النافع، ودين الحق يتضمن العمل الصالح.

قوله: «لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ» نوع اللام هنا للتعليل، أي: كي يظهره علىٰ الدين كله. وأين يعود الضمير في قوله: «لِيُظْهِرَهُ»؟ قال أكثر أهل العلم: هو عائد علىٰ الدين، وقال جماعة: إنه عائد علىٰ الرسول صلىٰ الله عليه وسلم، ولا مانع من القول بهما؛ لأن هذا الدين جاء به الرسول صلىٰ الله عليه وسلم؛ فهما متلازمان فنصرة هذا وظهوره نصرة لذاك.فتكون هذه الرفعة وهذا الظهور الذي كتبه الله شاملًا للرسول ولدين الإسلام الذي جاء به.

فمَن تمسَّك بهذا الدين الحق فسيظهره الله وينصره. كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

وَكَفَىٰ بالله شَهِيدًا ، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقرارًا به، وتوحيدًا، وأشهدُ أن محمدًا ....

قوله: «وَكَفَىٰ بالله شَهِيدًا» أي: شاهدًا للرسول صلىٰ الله عليه وسلم بأنه حق، وهو سبحانه ناصره ومُظهِرُه.

قوله: «وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلا اللهُ» هذه كلمة الإخلاص، وكلمة الإخلاص لها ركنان: النفي والإثبات. «لا إله»: نفي؛ أي: نفي جميع ما يعبد من دون الله.

«إِلا اللهُ»: إثبات أي: إثبات العبادة لله وحده لا شريك له.وهذه الشهادة لها عدة شروط ثمانية لا تتحقق إلا بها.

قوله: «إقرارًا به» مصدر مؤكد لمعنىٰ الفعل: (أشهد) ، والمراد: إقرار القلب واللسان. و«توحيدًا»؛ أي: إخلاصًا لله عز وجل في العبادة، فالمراد به التوحيد الإرادي الطلبي المبني علىٰ توحيد المعرفة والإثبات.

قوله: «وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا» جعل الشهادة للرسول بالعبودية والرسالة مقرونة بشهادة: «أن لا إله إلا الله»؛ للإشارة إلىٰ أنه لا بد من الجمع بينهما، وأنه لا تغني إحداهما عن الأخرىٰ.

فما حكم مَن شهِد أن لا إله إلا الله، ولم يشهد بأن محمدًا رسول الله؟

الجواب: هذا كُفر، وصاحبُه من أهل النار، والدليل ما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أنه قال:

عبدُه ورسولُه صلىٰ الله عليه

«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».

قوله: «عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» هنا وصف النبي صلىٰ الله عليه وسلم بوصفين:

١) العبودية لله عز وجل. ٢) الرسالة.

وقد أشار المُصَنِّف رحمه الله بهاتين الكلمتين إلىٰ وجوب الاعتدال في حق النبي صلىٰ الله عليه وسلم، ففيها رد علىٰ أهل الغلو الذين غلوا في النبي صلىٰ الله عليه وسلم ورفعوه فوق منزلته، وفيها أيضًا رد علىٰ أهل التفريط؛ الذين يشهدون بأنَّ محمدًا رسول الله لكن لا يستجيبون لأمره، ولا يمتثلون سنته.

وقوله: «عَبْدُهُ» رد علىٰ أهل الغلو الذين غَلَوا في النبي صلىٰ الله عليه وسلم، كما يفعله غلاة المتصوفة الذين يجعلون له بعض ما هو من خصائص الله.

وقوله: «وَرَسُولُهُ» رد علىٰ أهل التفريط الجفاة.

قوله: «صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ» الصلاة في اللغة: الدعاء؛ قال تعالىٰ: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: (١٠٣)] المراد: ادعُ لهم.

واختلف أهل العلم في المراد بصلاة الله علىٰ رسوله؟ وأصحُّ ما قيل في ذلك ما جاء عن أبي العالية كما في صحيح البخاري أنه قال: «صلاة الله علىٰ رسوله ثناؤه عليه في الملأ الأعلىٰ».

وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا مزيدًا.

ما المراد بصلاة الملائكة علىٰ الرسول أو علىٰ أحد من المؤمنين؟

أقرب الأقوال في ذلك: أَنَّ صلاتهم بمعنىٰ: الاستغفار، أو الدعاء بالمغفرة، وكلاهما صحيح؛ لما جاء في «الصحيحين» من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم قَالَ: «المَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَىٰ أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ الَّذِي صَلَّىٰ فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ؛ تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ».

أما المراد بالصلاة من الآدميين فالدعاء له.

قوله: «وعلىٰ آله» آل الشخص: هم من يمتون إله بصلة وثيقة من قرابة ونحوها ويراد بهم: من حرمت عليهم الصدقة، وهم بنو هاشم وبنو المطلب.

قوله: «وصحبه » والمراد بالصحب: أصحابه صلىٰ الله عليه وسلم، وهم كل من لقيه حال حياته مؤمنًا، ومات علىٰ ذلك.

قوله: «وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا مَزِيدًا» المراد تسليمًا زائدًا علىٰ الصلاة علىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم، فيكون بذلك دعاء له بالسلام بعد الصلاة، وفيه الجمع بين الصلاة والسلام عليه؛ وهذا ما أمر الله به في سورة الأحزاب؛ قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة ...

شرح وبيان مجمل اعتقاد الفرقة الناجية

قوله: «اعْتِقَادُ» المراد بالاعتقاد: ما عُقِد عليه الضميرُ، وما دان القلب لله تعالىٰ به؛ فكل شيء يَدين الإنسان به فهو يعتقده.

قوله: «الْفِرْقة» بالكسر الفئة والطائفة من الناس والجماعة كما في سورة التوبة ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة:١٢٢].

قوله: «النَّاجِيَةِ» أي: التي نجت في الدنيا من البدع والمخالفات العقدية، وتنجو في الآخرة من نار جهنم، فالنجاة شاملة للدنيا والآخرة، وعليه فالنجاة الثانية مترتبة على النجاة الأولىٰ؛ فمَن نجا مِن البدع والمخالفات في الدنيا نجا في الآخرة من نار جهنم. لماذا نص المُصَنِّف علىٰ أن هذه الفرقة ناجية؟

الجواب: إشارة إلىٰ أن ثَمَّ طوائفَ أخرىٰ ليست بناجية، كما أشار إلىٰ ذلك النبي صلىٰ الله عليه وسلم بقوله: «وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»، ثم قال: «كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً».

ما الضابط في معرفة النجاة؟

الجواب: الضابط هو اتباع هدي النبي صلىٰ الله عليه وسلم وأصحابه؛ فمَن كان متبعًا للنبي فهو الناجي.

إلىٰ قيام الساعة أهل السنة والجماعة:

قوله: «النَّاجِيَةِ المنْصُورَةِ» وصفها بوصفين: الناجية، والمنصورة، وقد وافق المُصَنِّفُ بذلك القرآنَ والسنة. أما القرآن ففي قوله تعالىٰ: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾ [الصف: ١٤].

وأما موافقة السُّنة ففي حديث المغيرةِ بنِ شعبةَ رضي الله عنه أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم؟ قال: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ الله».

قوله: «إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ» المراد يوم القيامة، وأمر هذه الأمة لا يزال مستقيمًا إلىٰ قرب قيام الساعة فتقوم الساعة علىٰ شرار الخلق، وعند قيام الساعة لا يوجد من يقول الله الله كما جاء ذلك في الأحاديث.

قوله: «أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجمَاعَةِ» فيه وصف للفرقة الناجية بصفتين:

١) أهل السُّنة، أي: أتباع السنة: وهب الطريقة التي كان عليها رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وأصحابه. ٢) الجماعة: أي: الاجتماع علىٰ الحق، وعلىٰ توحيد الله وسنة رسوله صلىٰ الله عليه وسلم. وبهذا تكون الأوصاف التي ذكرت هنا مع ما قبلها أربعة أوصاف: ١) الناجية. ٢) المنصورة. ٣) أهل السنة. ٤) أهل جماعة يحرصون علىٰ الاجتماع وينبذون الافتراق.

هو: الإيمان بالله،

قوله: « الإِيمَانُ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الموْتِ» هذه هي الأصول الستة، وأركان الإيمان، ولا يتم إيمانُ أحد إلا بالإيمان بها جميعًا، فما حكم مَن جحد ركنًا من هذه الأركان؟ الجواب: من جحد ركنًا منها فكأنما جحدها كلَّها ولم يؤمن بها، ومن لم يؤمن بها فقد كذَّب بالقرآن، والتكذيب بالقرآن كفر. والإيمان لغة: التصديق والاقرار ، واصطلاحًا: قول وعمل واعتقاد، فالقول كالتلفظ بالشهادتين ونحوهما مما يؤمر به، والعمل يشمل عمل القلب كالخوف والرجاء والمحبة ونحو ذلك، ويشمل عمل الجوارح أيضًا كالركوع والسجود ونحوهما، والاعتقاد يشمل إقرار القلب مع التسليم والانقياد.

والإيمان بالله ثلاثة أقسام: الإيمان بربوبيته، وبألوهيته، وبأسمائه وصفاته. والإيمان بوجوده داخل في الربوبية.

من آمن بوجود الله وبربوبيته ولم يؤمن بألوهيته، هل يعد مؤمنًا؟

الجواب: لا يعد مؤمنًا، وهذا ما كان يَدين به كفارُ قريش، فقد كانوا يقرون بربوبية الله دون ألوهيته، فلم ينفعهم ذلك شيئًا.

من آمن بوجوده وبربوبيته وبألوهيته ولم يؤمن بأسمائه وصفاته؟

الجواب: هذا من الإلحاد فيها. وعلى ما سبق؛ لا يتحقق إيمانُ العبد حتى يؤمن بوجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

وملائكته،

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة:

الملائكة: عالم غيبي خلقهم الله من نور لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وقد جعل الله تعالىٰ لهم وظائفَ؛ عِلمنا طرَفًا منها من خلال الكتاب والسنة، وخفي علينا الكثير منها، ونذكر طائفة مِمَّن عِلمنا وظائفهم من خلال الدليل: أولًا: الملائكة الموكلون بما فيه حياة: وما فيه حياة علىٰ أنواع:

١-ما فيه حياة القلوب، وهذا حياته تكون بالوحي، والملك الموكل بالوحي جبريل عليه السلام.

٢- من وُكِّل بحياة الأرض المتمثلة في القطر والنبات، وهذا هو ميكائيل.

٣- من وُكِّل بالنفخ بالصور، والموكل بذلك إسرافيل.

ثانيًا: الملائكة الموكلون بقبض الأرواح: وهم ملك الموت وأعوانه، ويجب الإيمان به وبوظيفته التي جاءت في النصوص، وقد اشتَهَر عند العوام باسم عزرائيل، ولا يثبت في ذلك شيء.

ثالثًا: الملائكة السيَّاحون في الأرض الذين يلتمسون مجالسَ الذكر.

رابعًا: الملائكة الموكَّلون بكتابة أعمال العباد.

خامسًا: الملائكة الذين يتعاقبون علىٰ بني آدم في الليل والنهار.

سادسًا: الملائكة الرُّكَّع السجود. سابعًا: خزنة الجنة والنار. وغيرهم.

وكتبه،

الشرح المهذب على العقيدة الواسطية

الركن الثالث: الإيمان بالكتب:

أي الكتب التي أنزلها الله علىٰ رسله، ولكل رسول كتاب، ولكن لا نعلم من هذه الكتب إلا ستة: القرآن، التوراة، الإنجيل، الزبور، صحف إبراهيم، صحف موسىٰ علىٰ القول بأنها غير التوراة.

هل يجب الإيمان بما جاء فيها؟ يجب الإيمان بهذا الكتب إجمالًا، وما جاء فيها لا سبيل لنا إلىٰ معرفته إلا من خلال ما جاءنا في القرآن والسُّنة، وقد أغنانا الله عنها بالقرآن الكريم الذي نسخ هذه الكتبَ جميعَها، وما يوجدُ الآن من كتبٍ منسوبةٍ إليهم؛ كالتوراة والإنجيل اللذان بين أيدي أهل الكتاب الآن، فنقطع بأنها ليست هي الكتب التي نزلت علىٰ موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام؛ لأنها حُرِّفَت وغُيِّرَت وبُدِّلَت، وفيها من الكلام الباطل والمكذوب علىٰ الله ما لا يخفىٰ. وقد يوجد فيها حق، ولكن لا نصدق ذلك ولا نكذبه، كما جاء عن رسولنا عليه السلام؛ ولذلك يجوز أن نحدث عنهم - أي أهل الكتاب - ما لم يخالف ذلك ديننا وكتابنا. أما القرآن فيجب الإيمان به علىٰ سبيل التفصيل؛ لأنه منزل من عند الله، وتكفل الله بحفظه سبحانه وتعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر:٩]. ومن العمل به: قراءته، والإيمان به، وتطبيقه بالعمل والتخلق بأخلاقه والوقوف عند حلاله وحرامه،

ورسله

والتحاكم إليه وتحكيمه في كل شؤون حياتنا، والاستشفاء به من أمراض القلوب و الأبدان، وتدبره وتفهمه زمعرفة مراد الله تعالىٰ منه وتعلم تفسيره.

ويقابل هذا أنواع هجر القرآن وهي خمسة أنواع: هجر سماعه، وهجر العمل به، وهجر التحاكم إليه، وهجر الاستشفاء به، وهجر تدبره وتفهمه.

الركن الرابع: الإيمان بالرسل:

الرسل عليهم السلام هم الذين أوحىٰ الله إليهم بالشرائع وأمرهم بتبليغها، وأول هؤلاء: نوح عليه السلام، وآخرهم: محمد صلىٰ الله عليه وسلم.

ما الفرق بين النبي والرسول؟

الجواب الصحيح أن الرسول: من أوحي إليه بشرع جديد وأمر بتبليغه، والنبي: من أوحي إليه بتبليغ شرعِ مَن قبلَه.

ومن الحكم من إرسال الرسل: دعوة الناس وهدايتهم زتذكيرهم بربهم وإقامة الحجة عليهم وتحقيق العدل فإن من عدله تعالىٰ ألا يعذب أحدًا حتىٰ يبعث رسولًا، فلم تخل أمة من رسول أو نبي.

صفات الرسل: هم بشر مخلوقون ليس لهم من خصائص الربوبية ولا الألوهية شيء، وتلحقهم خصائص البشر من االحاجة للطعام والشراب، والمرض، والموت.

ومن صفاتهم: العبودية في أعلىٰ مقاماتها، والعصمة من الخطأ في الوحي والتبليغ وفي ما يأتون وإن حصل لا يقرون عليه، وشرف النسب ، والصدق في النية والإرادة والقول والعمل، والأمانة في كل شيء، والشجاعة والقوة، والتبليغ وعدم الكتم لشيء، والفهم والفطنة والصبر والتحمل.

ومن مزايا دعوة الرسل: أن دعوتهم ربانية من عند الله فليست بالوراثة ولا بالمنصب ولا بكثرة المال والولد، ودعوتهم مبنية علىٰ الإخلاص وذلك أنهم يدعون إلىٰ التوحيد وترك الشرك وهو أساس دعوتهم، والقدوة والأسوة الحسنة، فلا يأمرون بشيء يخالفونه ، والحكمة في الدعوة والبدء بالاهم فالأهم، فبدءوا بالتوحيد ثم العبادات ثم المعاملات.

والإيمان بالرسل يتضمن أربعة أمور:

١ - الإيمان بأن رسالتهم حق من الله تعالىٰ، ولم يبتدعها أحد منهم من عند نفسه، شرفهم الله بها، فمن كفر برسالة واحد منهم فقد كفر بالجميع.

٢ - الإيمان بمن علمنا اسمه منهم مثل محمد وإبراهيم وموسىٰ ونوح عليهم السلام وغيرهم مما ذكر اسمه في الكتاب أو السنة علىٰ وجه التعيين. وهم خمسة وعشرون، منهم ثمانية عشر في الأنعام، ومنهم أولوا العزم.

....

أما من لم نعلم اسمه منهم فنؤمن به إجمالًا حيث نعتقد أن الله بعث في كل أمة نذيرًا.

٣ - تصديق ما صح عنهم من أخبارهم.

٤ - العمل بشريعة من أرسل إلينا منهم وهو خاتمهم محمد صلىٰ الله عليه وسلم. وهو أفضلهم وله خصائص ومنها:

بعض خصائص نبينا الكريم:

- أخذ العهد علىٰ الأنبياء أن يؤمنوا به لو بعث وواحد منهم حي.
- ذكره باسمه وصفته وصفة أمته في التوراة والإنجيل.
- هو أول المسلمين من هذه الأمة، وهو خاتم النبيين فلا نبي بعده.
- هو أفضل الخلق وسيد ولد آدم ومنة الله ونعمته علىٰ عباده
- أول من ينشق عنه القبر، وأول من يجوز الصراط وأول من يدخل الجنة .

وغيرها من الخصائص.

من ثمرات الإيمان بالرسل:

العلم برحمة الله وعنايته بعباده، وشكر الله تعالىٰ علىٰ نعمة إرساله للرسل عليهم السلام، ومحبة الرسل وتعظيمهم والثناء عليهم.

والبعث بعد الموت

الركن الخامس: البعث بعد الموت:

والبعث لغة: التحريك والإثارة والإخراج. وشرعًا: إخراج الناس من قبورهم بعد مماتهم، وإعادة الأرواح إلى الأبدان.

وهذا اعتقاد أهل السُّنة والجماعة من غير خلاف، وهو ثابت في الكتاب والسنة والإجماع. أما الكتاب: ففي عدة آيات؛ قال تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس:٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ:٣]، وقال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، هذه ثلاثة مواضع في القرآن، أقسم الله فيها على البعث بربوبيته.

وأما السُّنة: فالأحاديث في ذلك متواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم، من أشهرها ما جاء في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ، إِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ».

وأجمع المسلمون إجماعًا قطعيًا على أن الناس سيبعثون ويلاقون ربهم ويجازون بأعمالهم. ولذلك كان مذهب السلف الصالح رضي الله عنهم في باب الإيمان باليوم الآخر يقوم على أربعة ركائز:

....

الأولىٰ: الإيمان بما يكون قبله مما هو مقدمة له كأشراط الساعة، والموت، وعذاب القبر ونعيمه، والبرزخ.

الثانية: الإيمان بالبعث.

الثالثة: الإيمان بالحساب والجزاء، وأحوال اليوم الآخر.

والرابعة: الإيمان بالجنة والنار.

للإيمان باليوم الآخر أهمية عظمىٰ، تتضح فيما يلي:

أولاً: الرغبة في فعل الطاعة والحرص عليها، رجاء ثواب الله تعالىٰ عليها.

ثانيـًا: الرهبة من فعل المعصية خوفًا من عقاب الله تعالىٰ.

ثالثـًا: ضبط شهوات النفس، وضبط السلوك.

رابعـًا: الزهد في الدنيا، وتسلية المؤمن عمّا يفوته من نعيمها.

خامسـًا: تماسك المجتمع واستقراره.

سادسـًا: العدل بين البشر، وتسلية المؤمن عما يفوته في الدنيا بما يرجوه من نعيم الآخرة، وعدل الله سبحانه بمجازاته لكلٍ بما يستحق.

وبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

الركن السادس: الإيمان بالقدر خيره وشره:

وأصل القدر في اللغة: مصدر قدرت الشيء إذا أحطت بمقداره.

والمراد بالقدر شرعًا : تقدير الله تعالىٰ للأشياء والكائنات حسبما سبق علمه واقتضته حكمته. والقدر ثابت بالكتاب والسنة فمن الكتاب قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾، وقوله:﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾.وغيرها.

متىٰ كتب الله المقادير؟

كتب الله المقادير قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة.

كما جاء ذلك صريحًا في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال سمعت رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يقول: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ».

ومراتب القدر أربع:

الأولىٰ: علم الله بجميع الأشياء وعلمه بجميع أفعال العباد من طاعة ومعصية وغير ذلك، فهو سبحانه موصوف بالعلم أزلًا وأبدًا لا يغيب عن علمه شيء، كما قال تعالىٰ: إن الله بكل شيء عليم .

الثانية: كتابته لجميع الأشياء، فجميع ما كان وما سيكون كله مكتوب في اللوح المحفوظ ، كما قال تعالىٰ: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَىٰ اللهِ يَسِيرٌ . وقال: مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَىٰ اللهِ يَسِيرٌ .

الثالثة: مشيئة الله النافذة في كل شيء، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، كما قال تعالىٰ: ولو شاء الله ما فعلوه ، لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ، وقال: إن الله علىٰ كل شيء قدير .

الرابعة: الإيمان بأن الله خالق الأشياء وموجدها، فلا خالق غيره، ولا رب سواه كما قال: الله خالق كل شيء .

وكتابة المقادير خمسة تقادير:

١ – التقدير الأزلي قبل خلق السموات والأرض عندما خلق الله القلم.

كما قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾.

ويدل عليه أيضًا حديث عبد الله بن عمرو السابق.

وحديث عبادة بن الصامت: إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتىٰ تقوم الساعة..

رواه الترمذي وغيره، وصححه الألباني وغيره.

٢- التقدير الثاني: كتابة الميثاق والعهد علىٰ بني آدم . كما قال تعالىٰ:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وحديث عبد الله بن عمرو قال سمعت رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يقول: إنّ الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقىٰ عليهم من نوره فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدىٰ، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول: جف القلم علىٰ علم الله. رواه أحمد والترمذي وغيرهما ، وصححة الألباني وغيره.

٣- التقدير العمري: عند تخليق النطفة في الرحم.

كما في الصحيحين من حديث ابن مسعود ري الله عنه قال: قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد...الحديث.

....

٤ - التقدير السنوي في ليلة القدر يقدر فيها ما يكون في السنة إلىٰ مثله.

قال الله تعالىٰ: {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ - أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا} [الدخان: ٤ - ٥] الآيات. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت أو حياة ورزق ومطر، حتىٰ الحجاج يقال: يحج فلان، ويحج فلان.

٥ - التقدير اليومي وهو سوق المقادير إلىٰ المواقيت التي قدرت لها.

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾. أي يطلبون حاجاتهم إليه والشأن الذي كل يوم يغني ويفقر ويفرح وييسر ويرفع أقواما ويضع آخرين فمن شأنه: يحيي ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء، يغفر ذنبًا ويكشف كربًا...إلخ.

فهذا التقدير اليومي تفصيل من التقدير الحولي، والحولي تفصيل من التقدير العمري عند تخليق النطفة، والعمري تفصيل من التقدير العمري الأول يوم الميثاق، وهو تفصيل من التقدير الأزلي الذي خطه القلم في الإمام المبين.

قوله: «والإِيمَانِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»: هنا وصف القدر بوصفين الخير والشر، فأما وصف القدر بالخير فواضح لا إشكال فيه.

....

والإشكال: كيف يوصف القدر بالشر؟

الجواب عن ذلك: أن المراد شر المقدور لا شر القدر الذي هو فعل الله وتقديره، فإن فعل الله تعالىٰ لا يوصف بالشر، بل كل أفعاله خير وحكمة.

ولهذا قال تعالىٰ على لسان الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن: (١٠)] الخير هنا منسوب إلىٰ الله تعالىٰ، أما الشر فلم ينسب إلىٰ الله تعالىٰ؛ لذا قال: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾.

وجاء ذلك أيضًا في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما في «صحيح مسلم» في دعاء قيام الليل: أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم كان يدعو: «وَالخيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ».

والخلاصة: أن الشر لا يُنسب إلىٰ الله تعالىٰ، لكن الذي قدره هو الله تعالىٰ، الشر بالنسبة للمقدور لا بالنسبة للقدر. ويضاف إلىٰ ذلك أن يقال: إن هذه الشرية نسبية؛ فهي شر من جهة لكن يترتب عليه من الحِكَم والمصالح الشيء الكثير، ومثل ذلك وجود النفاق والمنافقين وأهل الشهوات، فإن النفاق شر والمنافقين أشرار والكافرين أشرار؛ لكن هذا التقدير وراءه حِكَم، من ذلك ما ذكره الله في قوله تعالىٰ: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: (٣٧)].

....

وعلىٰ هذا: من حِكَم وجود هؤلاء الامتحانُ لأهل الإيمان؛ هل يصبرون؟ وهل يقابلون هذا الشر بالخير؟ وهل يقومون بوظيفة الدعوة وتبليغ الدين؟

ثمرات الإيمان بالقدر كثيرة، ومنها:

الأولىٰ: صدق التوكل علىٰ الله تعالىٰ، والاعتماد عليه عند فعل الأسباب، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

الثانية: اليقين التام بقدرة الله تعالىٰ في حصول المطلوب، ولو اجتمع الناس علىٰ منعه، وبدفع المرهوب، ولو اجتمع الناس لوقوعه.

الثالثة: الصبر والرضا بما يقع علىٰ العبد من المصائب؛ فلا يتسخط ولا يجزع عند وقوعها، وإنما يقول: «قدر الله وما شاء فعل».

الرابعة: شكر الله تعالىٰ علىٰ نعمه، وعدم إعجاب المرء بنفسه عند حصول مراده؛ لأن حصوله عليه إنما هو بقدر الله تعالىٰ وتوفيقه وفضله.

الخامسة: هداية القلب وتمام التسليم، والراحة من الهم والحزن.

لقوله تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: ١١].

السادسة: السلامة من الحسد؛ لأن الحاسد معترض علىٰ قضاء الله وقدره، بتمنيه زوال النعمة التي قدرها الله للمحسود.

ومن الإيمان بالله: الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه العزيز، وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ من غير تحريف، ولا تعطيل.

الشرح المهذب على العقيدة الواسطية

تفصيل الاعتقاد

قوله: «وَمِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ ... » إلخ: شرع المُصَنِّف رحمه الله في التفصيل بعد الإجمال، فذكر أنَّ مِن عقائد أهل السنة والجماعة في الإيمان بالله:

الإيمانَ بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم؛ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

وأصل وقوع أهل الضلال في مثل هذا التحريف والتعطيل أمران:

الأول: الإعراض عن فهم كتاب الله تعالى كما فهمه الصحابة والتابعون.

والثاني: معارضة ما دل عليه بما يناقضه، وهذا هو من أعظم المحادة لله عز وجل، ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

ونذكر ها هنا تعريفات كل منها وأقسامها في الطوائف:

تعريف التحريف: وهو التأويل الباطل. وهو صرف اللفظ عن ظاهره بغير دليل.

وهو قسمان:

تحريف اللفظ:

كتحريف المؤولة لقوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾[الأعراف:٥٤] قالوا: استولى.

....

تحريف المعنى:

كتحريف المؤولة لقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [سورة المائدة:٦٤] . قالوا: قدرته أو نعمته أو نحو ذلك.

تعريف التعطيل:

تعطيل الأسماء والصفات: هو نفي الصفات الإلهية عن الله وإنكار قيامها بذاته أو إنكار بعضها. أوبعبارة أخصر: نفي الأسماء والصفات أو بعضها.

والتعطيل في هذا الباب على قسمين:

القسم الأول: التعطيل المحض التام أو الكلي.

وهو الذي عليه الجهمية والفلاسفة من إنكار جميع الأسماء والصفات.

والقسم الثاني: التعطيل الجزئي. وهو نوعان:

النوع الأول: إثبات الأسماء ونفي الصفات.

وهو الذي عليه المعتزلة ومن وافقهم.

النوع الثاني: نفي بعض الصفات دون بعض.

وهو الذي عليه الكلابية والأشاعرة والماتريدية.

ومن غير تكييف، ولا تمثيل.

الشرح المهذب علىٰ العقيدة الواسطية

تعريف التكييف:

هو اعتقاد أن صفات الخالق علىٰ كيفية من الكيفيات المتخيلة.

أو السؤال عنها بكيف.

تعريف التمثيل:

هو اعتقاد أن صفات الخالق مثل صفات مخلوقاته.

ومنهج أهل السُّنة: الإيمان بما وصف به الله نفسه في كتابه، وبما وصفه به نبيه صلىٰ الله عليه وسلم في سنته، وذلك علىٰ أربعة أقسام:

١) الوصف بالقول: مثال ذلك ما جاء في «الصحيحين» أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال: «يَضْحَكُ اللهُ إِلَىٰ رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ». الحديث له عدة ألفاظ، وهذا لفظ مسلم.

٢) الوصف بالفعل: مثاله: ما ثبت في «صحيح مسلم» في حديث جابر رضي الله عنه الطويل عندما خطب النبي صلىٰ الله عليه وسلم خطبة عرفة وقال: «أَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُم قَائِلُونَ؟ قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَىٰ النَّاسِ: اللهُمَّ اشْهَدْ، اللهُمَّ اشْهَدْ» إشارة إلىٰ العلو، فوصف ربه بالعلو بالفعل.

....

٣) الوصف بالقول والفعل معًا:

مثاله: ما رواه أبو داود في «سننه» أن أبا هريرة رضي الله عنه تلا الآية: {إن الله يأمرك أن تؤدوا الأمانات إلىٰ أهلها} إلىٰ قوله تعالىٰ: {أن الله كان سميعا بصيرا} [النساء: (٥٨)]، وقال: «رأيتُ رَسُولَ اللهِ ؟ يَقْرَؤُهَا ويَضَعُ إِبْهَامَهُ عَلَىٰ أُذُنِهِ، وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَىٰ عَيْنِهِ».

هل يقال: هذا تشبيه؟

الجواب: هذا ليس بتشبيه، بل أراد به النبي صلىٰ الله عليه وسلم تحقيقَ الصفة.

٤) إقرار الوصف: مثاله ما جاء في «صحيح مسلم» من حديثِ معاويةَ بنِ الحكم السُّلَمي رضي الله عنه وهو حديث طويل جاء فيه أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم سأل الجارية: «فَقَالَ لَهَا: أَيْنَ اللهُ؟ قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ»، فأقرَّها علىٰ ذلك، وقال لسيدها: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ».

ومن ذلك: إقراره صلىٰ الله عليه وسلم للحَبر اليهودي الذي قال لرَسُولِ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم: «يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللهَ يَضَعُ السَّمَاءَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالأَرْضَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالجِبَالَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ وَالأَنْهَارَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَقُولُ بِيَدِهِ: أَنَا المَلِكُ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم تصديقًا للحبر»، والحديث في الصحيحين من رواية ابن مسعود رضي الله عنه.

بل يؤمنون بأن الله سبحانه وتعالىٰ:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

قوله: «بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾» :

هذه الآية قاعدة من القواعد العظيمة في باب الأسماء والصفات.

وفيها جملة من الفوائد والاستنباطات:

أولًا: في الآية رد علىٰ المشبِّهة؛ لقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾.

ثانيًا: فيها رد علىٰ المعطِّلة؛ لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾.

ثالثًا: فيها رد علىٰ المعتزِلة الذين يثبتون الأسماء دون الصفات، حيث أخبر سبحانه أنَّ من أسمائه السميعَ والبصير، وهما اسمان يشتملان علىٰ صفتين، وهما: السمع، والبصر، وهو سبحانه ليس كمثله شيء في صفاته، بل هي علىٰ ما يليق بجلاله وعظمته.

رابعًا: فيها رد علىٰ الأشاعرة؛ إذ إنهم أثبتوا بعض الصفات ونفوا البعض الآخر، وقالوا: إثبات الصفات الخبرية يستلزم التشبيه، فيقال لهم: إن الله تعالىٰ في هذه الآية أثبت السمع والبصر، وردَّ علىٰ المشبهة؛ فإثبات الصفات لا يستلزم التشبيه؛ فيلزمكم فيما نفيتموه نظير ما قلتموه فيما أثبتُّموه؛ إذ القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر.

. . . .

الشرح المهذب علىٰ العقيدة الواسطية

خامسًا: فيها إثبات صفة السمع ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾.

سادسًا: فيها إثبات صفة البصر لله علىٰ ما يليق بجلاله﴿ٱلْبَصِيرُ﴾

سابعًا: فيها إثبات لمنهج أهل السنة والجماعة في النفي المجمل والإثبات المفصل. وطريقة القرآن والسُّنة: الإجمال في النفي، والتفصيل في الإثبات، إلا في مواطنَ معينةٍ يأتي فيها التفصيل في النفي، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾: فيه نفي مجمل، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾: فيه إثبات مفصل.

مواطن معينة يأتي فيها التفصيل في النفي:

الأولىٰ: بيان عموم كماله سبحانه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١] {ولم يكن له كفواً أحد} [الإخلاص: ٤]

الثانية: نفىٰ ما ادعاه في حقه الكاذبون كما في قوله: {أن دعوا للرحمن ولدا وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً} [مريم: ٩١، ٩٢]

الثالثة: دفع توهم نقص من كماله فيما يتعلق بهذا الأمر المعين كما في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الدخان:٣٨]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾.

الرابعة: تهديد الكافرين في مثل قوله تعالىٰ: {وما الله بغافل عما تعملون}.

....

الخامسة: توسيع دائرة الإثبات بإثبات أضدادها من صفات الكمال فنفى السنة والنوم إثبات لكمال حياته وإحاطة علمه وكمال قدرته، ونفي الصاحبة والولد إثبات لصمديته وعظمته.

قال شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى»: «السمع الذي أثبته الله سبحانه وتعالى لنفسه في الكتاب والسنة نوعان:

١) السمع العام: ويراد به إدراك الصوت؛ فسمع الله تبارك وتعالى شامل لجميع الأصوات؛ لأنه سميع لكل مسموع، كقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة:١].

٢) السمع الخاص: وهو سمع الإجابة والقَبُول، وهذا النوع متعلق بمشيئة الله تعالى وقدرته، كقول الخليل: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ﴾ [آل عمران:٣٨]».

ولا ريب أن أهل السنة، والجماعة، والحديث من أصحاب مالك، والشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد، وغيرهم متفقون على تنزيه الله - تعالى - عن مماثلة الخلق، وعلى ذم المشبهة الذين يشبهون صفاته بصفات خلقه.

فإنه قد علم بالكتاب، والسنة، والإجماع ما يعلم بالعقل أيضًا أن الله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

فَلَا يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ

قوله: «فَلَا يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ ... »:

طريقة الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة سالمة من نفي ما وصف الله به نفسه في كتابه، أو في سنة رسوله صلىٰ الله عليه وسلم؛ لأنه لا يجوز النفي إلا بدليل كالإثبات، هذا هو الصواب عند السلف، والأئمة، وجماهير المسلمين.

وقد اتفق سلف الأمة علىٰ ذم من نفىٰ بلا دليل ، فكيف ينفىٰ بلا دليل ما دل عليه دليل إما قطعي، وإما ظاهري؛ فإن الله – تعالىٰ – أخبر عن صفاته، وأسمائه بما لا يكاد يُعد من آياته، ثم إن النفي لا يؤمن معه إزالة ما وجب له – سبحانه– من صفات الجلال، ونعوت الكمال، كما أن النفي المحض عدم محض، والعدم المحض ليس بشيء، وما ليس بشيء، هو كما قيل ليس بشيء فضلاً عن أن يكون مدحـًا أو كمالاً، وإنما يكون كمالاً إذا تضمن أمراً ثبوتيـًا كقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فإن نفي السنة والنوم يتضمن كمال الحياة والقيام، فهو مبين لكمال أنه الحي القيوم. فما جاء من وصفه – سبحانه – بالنفي فالمقصود إثبات الكمال.

فالواجب أن ينظر في هذا الباب: فما أثبته الله، ورسوله أثبتناه، وما نفاه الله، ورسوله نفيناه، والألفاظ التي ورد بها النص يعتصم بها في الإثبات، والنفي.

وَلاَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ، وَلاَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالىٰ وآيَاتِهِ.

قوله: ولا يحرفون الكلم عن مواضعه: والتحريف محرم لأنه تغيير لكلام الله سبحانه، وقول علىٰ الله بلا علم. وقد ذم الله الذين يحرفون الكلم عن مواضعه من بني إسرائيل وغيرهم. والمحرفون فيهم شبه من اليهود والنصارىٰ.

قوله: وَلاَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالىٰ وآيَاتِهِ:

ذم الله الملحدين الذين يلحدون في أسمائه. قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: (١٨٠)]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ [فصلت: (٤٠)].

ما المراد بالإلحاد في الأسماء؟

الإلحاد في الأسماء: الميل عمَّا يجب لها شرعًا، في لفظها ودلالتها، وهو أنواع:

١) أن يُسمىٰ الله بما لم يُسَمِّ به نفسَه، كتسمية النصارىٰ الله بـ «أب».

٢) إنكار أسماء الله وصفاته أو بعضها: كفعل بعض المعطلة الذين جردوا الله تعالىٰ من أسمائه وصفاته أو بعضها.

٣) إنكار ما دلت عليه الأسماء من الصفات:

فمثلًا: قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [التحريم: (٢)]

. . . .

لا يجوز الاقتصار من دلالتها علىٰ الأسماء دون الصفات؛ بل يؤخذ من ذلك إثبات اسمين لله هما اسم «العليم» واسم «الحكيم»، كما يؤخذ منهما صفة العلم وصفة الحكمة لله تعالىٰ، فلا يجوز الاكتفاء بإثبات الاسمين دون ما يتعلق بهما من الصفات.

٤) أن يُثبت لله تعالىٰ الأسماء والصفات لكن مع تقييدها بالتمثيل: كمَن يقول: لله بصرٌ كبصرِنا، وسمعٌ كسمعِنا، وعلمٌ كعلمِنا، وهكذا ...

٥) أن يشتق من أسماء الله أسماء للمعبودات: كما اشتق أهل الشرك اسم (اللات): من الإله، و (العزىٰ): من العزيز، و (مناة): من المنَّان.

ما حقيقة الإلحاد في آيات الله وكيف يكون؟ الجواب: آيات الله علىٰ نوعين:

١) الآيات الكونية: كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ﴾ [فصلت: (٣٧)]، وغير ذلك من آيات الله الكثيرة في الآفاق والكون.

فمَن نسب شيئًا من هذه الآيات إلىٰ غير الله، فهو ملحد في آيات الله، كما تقوله طوائفُ من الصوفية، يقولون: إن الولي فلانًا يدبرُ الليل والنهار.

٢) الآيات الشرعية: وهو الوحي الذي أنزله الله علىٰ الرسل كالقرآن والتوراة والإنجيل. والإلحاد في القرآن يكون بتكذيبه أو تحريف آياته أو مخالفتها، كل هذا يعد إلحادًا في القرآن.

وَلاَ يُكَيِّفُونَ، وَلاَ يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ؛ لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ:
لاَ سَمِيَّ لَهُ، وَلاَ كُفْءَ لَهُ،

هل يجوز تخيل صفات الله عز وجل؟

لا يجوز تخيل أي صفة من صفات الله، ولا يجوز للمسلم أن يستسلم لذلك، ومَن خطر له شيء من ذلك فلينتهِ؛ لِما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: «يَاتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّىٰ يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ، فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ»، لينته: ليقطع المادة بالحسم وعدم الاسترسال في هذه الخواطر؛ لأنها من الشيطان.

قوله: «لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ» هذه الجملة تعليلية، فلما بين المُصَنِّف منهج أهل السنة في الأسماء والصفات علل لذلك بما سبق في سلوك أهل السنة والجماعة هذا المذهب فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته؛ لأنه سبحانه لا سميَّ له.

قوله: «لَا سَمِيَّ لَهُ»: السمي: المساوي. فالله سبحانه لا مساوي ولا مماثل له، والدليل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: (٦٥)]؛ أي هل تعلم له مماثلًا؟

قوله: «وَلَا كُفْءَ لَهُ»: الكفء والكفو: أي المكافئ، والله سبحانه لا مكافئ له قال تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: (٤)].

وَلاَ نِدَّ لهُ.

ولاَ يُقَاسُ بِخَلْقِهِ ﷻ. فَإِنَّهُ سبحانه: أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ.

قوله: «وَلَا نِدَّ لَهُ»: الند النظير، والله تعالىٰ لا نظير له ولا ند له؛ قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: (٢٢)]. وهذه الثلاث التي ذكر المُصَنِّف«السَّمِيُّ وَالْكُفْءُ والنِّد» معانيها متقاربة.

قوله: «وَلَا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ» يمتنع القياس بين الله تعالىٰ وبين خلقه، لوجود التبايُن الكبير بين الله وبين خلقه، فلا مثيل له سبحانه، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

فلا يجوز قياس الله – تعالىٰ – بخلقه في أمر من الأمور، ولا يجوز أن يمثل بغيره، ولا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية كلية تستوي أفرادها، ولكن يستعمل في ذلك قياس الأولىٰ الذي كان يسلكه السلف اتباعًا للقرآن، فهو طريق فطري ضروري متفق عليه، يتضمن أن يثبت له من صفات الكمال التي لا نقص فيها أكمل مما علموه ثابتًا لغيره، وينزه عن كل نقص ينزه عنه غيره، ويذم به سواه. وبهذه الطريقة جاء القرآن، وهي طريقة سلف الأمة، وأئمتها. فكل ما ثبت لغيره من الكمال الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه فهو أحق به، وما نزه عنه غيره من النقائص فهو أحق بالتنزيه منه كما قال – تعالىٰ –: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] .

فَإِنَّهُ سبحانه: أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيلاً، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ.
ثُمَّ رُسُلُه صَادِقُونَ مُصَدَّقُون،

قوله: «فَإِنَّهُ سبحانه: أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ» هذا تعليلٌ لصحة مذهب السلف في الإيمان بجميع الصفات الواردة في الكتاب والسنة. ومُفاد هذا التعليل أنه إذا كان سبحانه وتعالىٰ أعلمَ بنفسه وبغيره وأصدقَ قيلًا وأحسنَ حديثًا، فيجب الرجوع في هذا الباب -نفيًا وإثباتًا- إلىٰ ما قاله سبحانه؛ لأنه أعلم بنفسه وأعلم بغيره، كما يجب الرجوع إلىٰ ما قاله رسوله صلىٰ الله عليه وسلم لأنه أعلم الخلق بالله عز وجل، والبيان التام هو ما بينه الله تعالىٰ وما بينه الرسول صلىٰ الله عليه وسلم، فإنه أعلم الخلق بالحق، وأنصح الخلق للخلق، وأفصح الخلق في بيان الحق، فما بينه من أسماء الله، وصفاته، وعلوه، وفوقيته هو الغاية في هذا الباب.

قوله: «وَأَصْدَقُ قِيلًا..» عبَّر المُصَنِّف بهذه العبارة لأجل موافقة القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء:١٢٢]، وفي هذا لفتة لأهمية التزام المصطلحات والتسميات الشرعية الواردة في الكتاب والسُّنة.

قوله: «ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقُونَ مُصَدَّقُونَ» الصدق: مطابقة الخبر للواقع.

وقوله: «صَادِقُونَ»: أي بما جاءوا به عن الله سبحانه وتعالىٰ.

«مُصَدَّقُونَ»: أي أن ما أُوحي إليهم صدق.

بِخِلاَفِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لاَ يَعْلَمُونَ

وفي نسخة «مَصْدُوقون»، والمصْدُوق: من أوحي له بصدق، يعني أن مَن بلَّغه صدَق فيما بلغه، وعلىٰ ضبطها بالتشديد «مُصَدَّقون»: أي من البشر، والذين يصدقونهم هم أتباعهم من المؤمنين بالرسل.

والخلاصة: أن الرسل عليهم السلام مَصْدوقون في كل ما أوحي إليهم، فلم يكذبهم الذي أرسلهم وهو الله، ولم يكذبهم الذي أرسل إليهم وهو جبريل، وأيضًا لم يكذبهم أتباعُهم من المؤمنين، ويمكن أن يصح وجه آخر في نسخة «مُصَدَّقُون» بأن الله صدَّقهم بقوله وفعله، أما تصديقه لهم بالقول فجاء في آيات كثيرة؛ قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ [المنافقون: (١)]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: (٤٠)]؛ فصدَّق اللهُ رسولَه بالقول. وأما تصديقه لهم بالفعل فبالتمكين الذي كان للنبي صلىٰ الله عليه وسلم، وظهور دينه علىٰ الأديان كلها، وما آتاه الله من الآيات والمعجزات وأعظمها القرآن، وهو أعظم معجزة.

قوله: «بِخِلَافِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ»: وهم أهل التحريف؛ لأن أهل التحريف قالوا علىٰ الله بلا علم، وليسوا بصادقين في أنفسهم، وليسوا بمصدوقين فيما قالوه، وليسوا بمصدَّقين من الخلق، بل الذي قالوه افتراء علىٰ الله عز وجل.

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. [الصافات: ١٨٠-١٨٢]

فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ، وَسَلَّمَ عَلَىٰ الْمُرْسَلِينَ؛ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ.

ذكر المُصَنِّف هذه الآية لأنها تدل علىٰ تنزيه الله تعالىٰ. فبين أن هذا المنهج هو منهج الرسل عليهم السلام، وهو تسبيح الله وتنزيهه؛ ولهذا سلم علىٰ المرسلين لسلامة ما قالوه. والرسل: هم أعظم مَن سبَّح الله ونزَّهه عما وصفه به الذين لا يعلمون. فالرسل وصفوا الله بصفات الكمال، ونزهوه عن النقائص المناقضة للكمال، ونزهوه عن أن يكون له مثل في شيء من صفات الكمال، وأثبتوا له صفات الكمال علىٰ وجه التفصيل، ونفوا عنه التمثيل.

وفي اقتران السلام عليهم بتسبيحه نفسه سر عظيم من أسرار القرآن يتضمن الرد علىٰ كل مبطل، ومبتدع، فإنه نزه نفسه تنزيهاً مطلقاً كما نزه نفسه عما يقول خلقه، ثم سلم علىٰ المرسلين، وهذا يقتضي سلامتهم من كل ما يقول المكذبون لهم المخالفون لهم، وإذا سلموا من كل ما رماهم به أعداؤهم لزم سلامة كل ما جاؤوا به من الكذب، والفساد. وأعظم ما جاؤوا به التوحيد، ومعرفة الله، ووصفه بما يليق بجلاله مما وصف به نفسه علىٰ ألسنتهم.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيما وَصَفَ وَسَمَّىٰ بِهِ نَفْسَهُ بينَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ.

هذه الجملة تضمنت قاعدة عظيمة نافعة في هذا الباب، وهي: أن الكلام في الصفات مبني علىٰ أصلين، بيَّنَهما في قوله: «وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيمَا وَصَفَ وَسَمَّىٰ بِهِ نَفْسَهُ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ»:

الأصل الأول: النفي. والأصل الثاني: الإثبات. فأما النفي: فالمراد به نفي ما يُضادُّ كمالَ الله تعالىٰ؛ من أنواع العيوب والنقائص. وأما الإثبات: فهو إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال لله سبحانه وتعالىٰ. فالقرآن فيه نفي وإثبات.

قال شيخ الإسلام: «وبيان هذا أن سبيل سلف الأمة وأئمتها في الصفات مبني علىٰ أصلين: أحدهما: أن الله سبحانه وتعالىٰ منزَّه عن صفات النقص مطلقًا؛ كالسِّنَةِ والنوم والعجز والجهل وغير ذلك. الثاني: أن الله متصِفٌ بصفات الكمال التي لا نقص فيها علىٰ وجه الاختصاص بما له من الصفات، فلا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من الصفات». فالنفي الذي جاءت به النصوص يجمعه نوعان: نفي النقص، ونفي مماثلة غيره له في صفات الكمال.

ومن أمثلة النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾[الشورىٰ:١١]، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [الإخلاص: (٣)] ، ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: (٢٥٥)]،

وأمثلة الإثبات: في القرآن أكثر، مثل: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾، وأمثالها.

....

والمقصود أن مذهب أهل السنة والجماعة مبني علىٰ هذين الأصلين.

والصفاتُ علىٰ قسمين: صفات ثبوتية، وصفات سلبية.

فالصفات الثبوتية: كل ما أثبته الله تعالىٰ لنفسه، وجميعُها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه.

أما الصفات السلبية: فهي الصفات التي نفاها الله تعالىٰ عن نفسه من صفات النقص والعيب.

أقسام الصفات الثبوتية:

أـ تنقسم الصفات الثبوتية من جهة تعلقها بالله إلىٰ قسمين:

القسم الأول: الصفات الذاتية. القسم الثاني: الصفات الفعلية.

أما القسم الأول: الصفات الذاتية:

فضابطها: هي التي لا تنفك عن الذات.

أو: التي لم يزل ولا يزال الله متصفـًا بها.

أو: الملازمة لذات الله تعالىٰ.

ومنها: الوجه – اليدين – العينين – الأصابع – القَدَم – العلم – الحياة – القدرة – العزة – الحكمة.

....

القسم الثاني: الصفات الفعلية.

وضابطها: هي التي تنفك عن الذات.

أو: التي تتعلق بالمشيئة والقدرة.

ومنها: الاستواء - المجيء - الإتيان - النزول - الخلق - الرزق - الإحسان.

فالفرق بين القسمين:

أن الصفات الذاتية لا تنفك عن الذات.

أما الصفات الفعلية يمكن أن تنفك عن الذات علىٰ معنىٰ أن الله إذا شاء لم يفعلها. ولكن مع ذلك فإن كلا النوعين يجتمعان في أنهما صفات لله تعالىٰ أزلاً وأبداً لم يزل ولا يزال متصفاً بهما ماضياً ومستقبلاً لائقان بجلال الله ﷻ.

الصفات الإلهية تعريفها، أقسامها (ص٦٥- ٦٦).

❖ مذهب السلف رضوان الله عليهم إثبات الصفات وإجراؤها علىٰ ظاهرها ونفي الكيفية عنها. لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات وإثبات الذات إثبات وجود؛ لا إثبات كيفية فكذلك إثبات الصفات.

❖ وعلىٰ هذا مضىٰ السلف كلهم.

فَلاَ عُدُولَ لأَهْلِ السُّنَّةُ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ؛ فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَالِحِينَ.

قوله: «فَلَا عُدُولَ لِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالجمَاعَةِ ... » هذه الجملة تعليلية لما سبق؛ إذ ذكر رحمه الله مذهب أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات، ثم علل لذلك بأنه هو الحق؛ لأنه هو الذي جاءت به الرسل، وأنزلت به الكتب، وشهدت به العقول السليمة، هذه ثلاثة طرق عرفنا بها «مذهب أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات». وما جاءت به الرسل، وأنزلت به الكتب، وشهدت به العقول الصحيحة؛ هو الدين الحق الذي جاءت به الرسل عليهم السلام. ودين الرسل دين واحد وهو الإسلام؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: (١٩)]. والأنبياء دينهم واحد؛ وهو دين الإسلام: وهو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: (٣٦)]؛ فالأنبياء اتفقوا علىٰ ذلك، ودعوتهم واحدة، وإنما وقع الاختلاف بينهم في الأحكام المتعلقة بالعبادات.

فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَالِحِينَ.

الشرح المهذب على العقيدة الواسطية

قوله: «فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ»، هل الضمير يعود إلىٰ مذهب أهل السنة والجماعة في هذا الباب، أو يعود إلىٰ ما جاءت به الرسل؟ كلاهما صحيح؛ لأن مذهب أهل السنة والجماعة هو ما جاءت به الرسل.

وأصل الصراط: الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف.

والصراط هو الإسلام، وقيل القرآن، وقيل الرسول.

ويمكن أن يقال هو الطريق الذي نصبه الله لعباده علىٰ ألسنة رسله عليهم السلام وجعله موصلا لعباده إليه، فلا طريق لهم سواه، وهو طاعة الله ورسوله.

ولا يسمىٰ الطريق صراطًا حتىٰ يتضمن خمسة أمور:

١ - الاستقامة؛ فهو أقرب طريق مستقيم يوصل للمقصود.

٢ - إيصاله للمقصود فلا يضل سالكه ولا يتيه.

٣- قربه فهو أقرب طريق بخط مستقيم بين نقطتين.

٤ - سعته للمارين عليه.

٥ - تعيينه للمقصود فهو طريق المنعم عليهم، لا طريق المخالفين.

قوله: «صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ». نِعَمُ الله قسمان:

١) النعم العامة: أي لكل البشر مسلمِهم وكافرِهم؛ فالله يُمِد الجميع بالنعم.

....

٢) النعم الخاصة: وهي نعم الله علىٰ أهل الإيمان بالإيمان وأيضًا نعمته علىٰ أهل العلم بالعلم، ونعمته علىٰ أهل الإنفاق بالإنفاق، وهكذا ...

وهناك نعمة أخص؛ وهي نعمة الله تعالىٰ علىٰ أنبيائه بالنبوة، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: (١١٣)] عظيمًا: أي بنعمة الرسالة وهي أعظم النعم.

إذن النعم ثلاثة: نعمة عامة، ونعمة خاصة لأهل الإيمان، ونعمة أخص؛ وهي نعمته علىٰ أنبيائه بالنبوة. ومَن الذين أنعم الله عليهم؟

الجواب: هم الأصناف الأربعة الذين ذكرهم الله في سورة النساء؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: (٦٩)].

الصنف الأول: الأنبياء؛ وهم كل من أوحىٰ الله إليهم ونبَّأهم.

الصنف الثاني: الصديقون: جمع صِدِّيق، والصديق: هو من صدق مع الله في معتقده وإخلاصه وإرادته، وفي مقاله وأفعاله، والصديقيَّةُ: مرتبة عظيمة وهي أعظم المراتب بعد مرتبة النبوة.

مَن صديق هذه الأمة؟ هو أبو بكر رضي الله عنه، بل هو أفضل الصديقين.

....

وفي صحيح البخاري أن أنس بن مالك رضي الله عنه حدثهم: أَنَّ النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم صَعِدَ أُحُدًا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ، فَرَجَفَ بِهِمْ، فَقَالَ: «اثْبُتْ أُحُدُ؛ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ».

وجاء في حديث آخر أنهم كانوا علىٰ جبل حراء، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم كَانَ عَلَىٰ حِرَاءٍ هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ، فَتَحَرَّكَتِ الصَّخْرَةُ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: «اهْدَا؛ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ».

هل مرتبة الصديقية خاصة بالرجال؟

ليست خاصة بهم، قال تعالىٰ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: (٧٥)].

الصنف الثالث: الشهداء: الذين قتلوا في سبيل الله.

الصنف الرابع: الصالحون.

وهذه المرتبة شاملة لجميع الأنواع الثلاثة السابقة، وشامله أيضًا لمن كان دونهم في الإيمان ولم يبلغ هذه المراتب.

مَنِ الصالحُ؟ اختلف أهل العلم في تعريف الصالح، والأقرب في الصالح أنه الذي قام بحق الله وحق عباده.

وَقَدْ دَخَلَ فِي هِذِهِ الْجُمْلَةِ: مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الإِخْلاَصِ الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ،

الشرح المهذب علىٰ العقيدة الواسطية

قوله: «وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الجُمْلَةِ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ ... »

المراد بالجملة قوله فيما تقدم: وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيما وَصَفَ وَسَمَّىٰ بِهِ نَفْسَهُ بينَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ. أو يكون المراد أعم من ذلك وهو ما تقدم ذكره من التقدمة لبيان اعتقاد أهل السنة والجماعة وطريقتهم في إثبات الأسماء والصفات.

ومن ذلك ما وصف الله به نفسه في سورة الإخلاص، فإن هذه السورة اشتملت علىٰ جميع أنواع التنزيه، والتحميد، علىٰ النفي والإثبات، ولهذا كانت تعدل ثلث القرآن. فعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ القرآن؟ قَالُوا: وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ القرآنِ؟ قَالَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ القرآن». رواه مسلم.

ويوضح شيخ الإسلام وجه كونها تعدل ثلث القرآن، بقوله: لأن القرآن إما خبر، وإما إنشاء، والخبر: إما خبر عن الخالق، وإما عن المخلوق. فثلثه قصص، وثلثه أمر، وثلثه توحيد، فهي تعدل ثلث القرآن بهذا الاعتبار. وليس في القرآن سورة هي وصف الرحمن محضاً إلا هذه السورة، ولهذا تسمىٰ سورة الإخلاص، فقد تضمنت هذه السورة من وصف الله – سبحانه، وتعالىٰ – الذي ينفي قول أهل التعطيل، وقول أهل التمثيل، ما صارت به هي الأصل المعتمد في مسائل الذات.

حَيثُ يَقُولُ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾. [الإخلاص: ١-٤]

والمراد بالذات النفس الموصوفة التي لها وصف، ولها صفات، ومن الأصول المعروفة في هذا الباب أن القول في الصفات كالقول في الذات.

قوله : حَيثُ يَقُولُ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾

في هذه الآية الكريمة: إثبات الأحدية لله المستلزمة نفي كل شريك عنه.فقوله: أحد يدل علىٰ نفي النظير، وأنه ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، كما دلت علىٰ تفرده بالكمال، والجلال، والكبرياء.

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ في هذه الآية الكريمة إثبات اسم الصمد لله – تعالىٰ–، واسمه الصمد يتضمن إثبات صفات الكمال، ونفي النقائص، فالصمدية تثبت الكمال المنافي للنقائص، والأحدية تثبت الانفراد بذلك.

قال شيخ الإسلام: ولفظ ص م د يدل علىٰ الاجتماع، والانضمام المنافي للتفرق، والخلو، والتجويف، والاسم الصمد فيه للسلف أقوال متعددة قد يظن أنها مختلفة وليست كذلك، بل كلها صواب، والمشهور منها قولان: أحدهما: أن الصمد هو الذي لا جوف له. والثاني: أنه السيد الذي يصمد إليه في الحوائج. والأول هو قول أكثر السلف من الصحابة، والتابعين، وطائفة من أهل اللغة.

والثاني قول طائفة من السلف، والخلف، وجمهور اللغويين، والاشتقاق يشهد للقولين جميعًا؛ قول من قال: إن الصمد الذي لا جوف له، وقول من قال: إنه السيد، وهو علىٰ الأول أدل، فإن الأول أصل الثاني، وعلم بهذا أن معنىٰ الصمد يوجب الاستسلام لله وحده المنافي للاستكبار، فإن الصمد يتضمن صمود كل شيء إليه، وفقره إليه. فهو - سبحانه - الذي يفتقر إليه كل شيء، ويستغني عن كل شيء، بل الأشياء مفتقرة من جهة الربوبية، ومن جهة إلهيته، فما لا يكون به لا يكون، وما لا يكون له لا يصلح، ولا ينفع، ولا يدوم. فالصمدية تثبت له الكمال، والأحدية تنفي مماثلة شيء له في ذلك. وهذان الاسمان: الأحد، والصمد لم يذكرهما الله إلا في هذه السورة.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾

قال شيخ الإسلام: هذه الآية الكريمة تضمنت تنزيه الله نفسه عن أن يكون له ولد، وهذا من تمام معنىٰ الصمد، وكذلك تنزيه نفسه عن أن يولد.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ قال شيخ الإسلام: في هذه الآية الشريفة نفي للشركاء، والأنداد، يدخل فيه كل من جعل شيئًا كفواً لله في شيء من خواص الربوبية مثل: خلق الخلق، والإلهية، كالعبادة له، ودعائه، ونحو ذلك.

وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِهِ؛ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾

الشرح المهذب على العقيدة الواسطية

يدخل فيما سبق أيضًا: ما وصف الله به نفسه في أعظم آية في كتابه في آية الكرسي، فإنها أعظم آية في كتاب الله، ودليل ذلك ما في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((يا أُبي، أتدري أي آية في كتاب الله أعظم؟)) قال: {اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [البقرة: ٢٥٥]، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ليهنك العلم أبا المنذر)). فأخبر في هذا الحديث الصحيح أنها أعظم آية في القرآن، وفي ذاك أنها أعلى شعب الإيمان، وهذا غاية الفضل، فإن الأمر كله مجتمع في القرآن، والإيمان، فإذا كانت أعظم القرآن، وأعلى الإيمان ثبت لها غاية الرجحان. وليس في القرآن آية واحدة تضمنت ما تضمنته آية الكرسي من الصفات العظيمة، والمعاني الجليلة.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾

في هذه الآية الكريمة العظيمة إثبات انفراد الله بالألوهية.

وفيها: إثبات اسم الحي، وصفة الحياة.

واسم الحي مستلزم لجميع الصفات، ذو الحياة الكاملة المتضمنة لجميع صفات الكمال، وهي حياة لم تسبق بعدم، ولا يلحقها زوال، ولا يعتريها نقص بوجه من الوجوه، فهو الباقي سبحانه.

وفيها: إثبات اسم القيوم، وصفة القيومية، ومعنى القيوم، القائم المقيم لما سواه، فهو الباقي الذي لا يزول، والقيوم أبلغ من القائم لأن الواو أقوى من الألف، والمراد: القائم بنفسه فلا يحتاج لأحد بل هو المستغني عن كل شيء، والمقيم لما سواه، إذ كل مخلوق في حاجة إليه.

وفي هذه الآية الكريمة وصف الله – تعالى – نفسه بالنفي، وذلك لكونه متضمنًا لإثبات مدح، فإنه– سبحانه – لا يمدح بالصفات السلبية إلا لتضمنها المعاني الثبوتية، فإذا وصف بالسلوب فالمقصود هو إثبات الكمال.

فنفي السنة، والنوم يتضمن كمال الحياة، والقيومية، وهذه من صفات الكمال، فإن النوم ينافي القيومية، والنوم أخو الموت، فلو جعلت له سنة، أو نوم لنقصت حياته، وقيوميته، فلم يكن قائمًا، ولا قيومًا، ولهذا نفى الله – تعالى – عنه السنة، والنوم، لكون ذلك مناقضًا لما علم من صفاته الكاملة.

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ ﴾

في هذا إثبات تمام ملكه – جل وعلا – لما في السماوات والأرض.

فنفيه أن يشفع أحد عنده إلا بإذنه يتضمن كمال ملكه لما في السماوات، وما في الأرض، وأنه ليس له شريك، فإن من شفع عنده غيره بغير إذنه، وقبل شفاعته كان مشاركًا له، إذ صارت شفاعته سببًا لتحريك المشفوع إليه.

﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ ﴾. [البقرة: ٢٥٥].

بخلاف من لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فإنه منفرد بالملك ليس له شريك بوجه من الوجوه، وهذا كمال الملك، والربوبية، وانفراده بذلك.

﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ ﴾

في هذا أثبت سعة علمه - سبحانه -، ثم بين أنهم لا يعلمون من علمه إلا ما علمهم إياه، كما قالت الملائكة: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ ﴾ [البقرة: ٣٢] .

فكان في هذا النفي إثبات أن عباده لا يعلمون إلا ما علمهم إياه، فهو العالم بكل شيء، ولا يعلم أحد شيئًا إلا بتعليمه، فبين أنه المنفرد بالتعليم، والهداية.... كما أنه المنفرد بالخلق والإحداث.

﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾

في هذا إثبات سعة كرسيه - جل وعلا-، و الكرسي ثابت بالكتاب، والسنة، وإجماع جمهور السلف، وهو غير العرش.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أي: لا يثقله، ولا يكرثه.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: إن الكرسي الذي وسع السماوات والأرض لموضع القدمين، ولا يعلم قدر العرش إلا الذي خلقه.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾. [البقرة: ٢٥٥]. أي: لايُكرِثُهُ وَلا يُثْقِلُهُ. ولهذا كان «من قَرأ هذه الآية في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتىٰ يصبح».

الشرح المهذب علىٰ العقيدة الواسطية

وفيها: إثبات عظيم قدرة الرب - جل وعلا - حيث ذكر سعة كرسيه السماوات والأرض، وأنه - سبحانه - {لاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا} [البقرة: ٢٥٥] ، أي: لا يكرثه ولا يثقل عليه كما تقدم، وهذا النفي تضمن كمال قدرته، فإنه مع حفظه للسماوات والأرض لا يثقل ذلك عليه كما يثقل علىٰ من في قوته ضعف.

{وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيم} [البقرة: ٢٥٥] .

ختم هذه الآية بهذين الاسمين الجليلين الدالين علىٰ علو ذاته، وعظمته في نفسه. واسمه - تبارك، وتعالىٰ - العلي يفسر بأنه أعلىٰ من غيره قدراً، فهو أحق بصفات الكمال، ويفسر بأنه العالي عليهم بالقهر، والغلبة، فيعود إلىٰ أنه القادر عليهم، وهم المقدورون، وهذا يتضمن كونه خالقًا لهم، وربًا لهم، وكلاهما يتضمن أن نفسه فوق كل شيء، فلا شيء فوقه.

وأما اسمه العظيم فهو متضمن لصفات عديدة، فالعظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال، فهو من الأسماء الدالة علىٰ جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة. ولهذا كان من قرأ هذه الآية في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتىٰ يصبح. وبيان هذا أنه قد ثبت في الصحيح عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه:

....

لما وكله النبي صلىٰ الله عليه وسلم بحفظ زكاة الفطر فسرق منه الشيطان ليلة بعد ليلة، وهو يمسكه فيتوب فيطلقه، فيقول له النبي صلىٰ الله عليه وسلم: ما فعل أسيرك البارحة؟ ، فيقول: زعم أنه لا يعود، فيقول: كذبك، وإنه سيعود، فلما كان في المرة الثالثة، قال: دعني أعلمك ما ينفعك، إذا أويت إلىٰ فراشك فاقرأ آية الكرسي {اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوم} [البقرة: ٢٥٥] إلىٰ آخرها، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتىٰ تصبح، فلما أخبر النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: صدقك، وهو كذوب! ، وأخبره أنه شيطان)). ولهذا إذا قرأها الإنسان عند الأحوال الشيطانية بصدق أبطلتها بإذن الله.

وقوله – سبحانه – ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] ،

في هذه الآية الكريمة إثبات أنه الحي الذي لا يموت.

وبهذا وصفته الرسل – عليهم الصلاة والسلام–، فإن الحياة صفة كمال، والموت مناقض لها، ووصفه بالحياة يستلزم نفي الموت، فله الحياة الكاملة المتضمنة جميع الصفات، وقد تضمنت هذه الآية الإثبات والنفي، فقوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ﴾ إثبات لحياة الله الكاملة من جميع الوجوه. وقوله:﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ لأن حياته تعالىٰ لا يلحقها موت ولا فناء، فهو الباقي سبحانه.

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ [الحديد: ٣].

الشرح المهذب علىٰ العقيدة الواسطية

قوله: وقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ٣]: في هذه الآية الكريمة إثبات هذه الأسماء الأربعة لله تعالىٰ.

وأما تفسيرها فقد ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم، وغيره عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم أنه كان يقول: ((اللهم أنت الأول، فليس قبلك شيء، وأنت الآخر، فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء، وأنت الباطن، فليس دونك شيء)).

وقال ابن زمنين في تفسير هذه الأسماء الأربعة: هو الأول لا شيء قبله، والآخر الباقي إلىٰ غير نهاية، ولاشيء بعده، والظاهر العالي فوق كل شيء، والباطن بطن علمه بخلقه.

واسمه – جل وعلا – الظاهر ضمن معنىٰ العالي كما قال: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧] ... ، فكلما علا الشيء ظهر، ولهذا قال: أنت الظاهر، فليس فوقك شيء فأثبت الظهور، وجعل موجب الظهور أنه ليس فوقه شيء. فهذا أخبر بأنه ليس فوقه شيء في ظهوره، وعلوه علىٰ الأشياء.

....

ومن كلام شيخ الإسلام: واسمه - جل وعلا - الباطن أوجب أن لا يكون شيء دونه، فلا شيء دونه باعتبار بطونه، و في هذا اللفظ معنىٰ القرب، والبعد من وجه، ومعنىٰ الاحتجاب..، فقوله: وأنت الباطن، فليس دونك شيء نفىٰ أن يكون شيء دونه، كما نفىٰ أن يكون فوقه. ولهذا لم يجئ هذا الاسم الباطن كقوله: وأنت الباطن، فليس دونك شيء إلا مقرونـًا بالاسم الظاهر الذي فيه ظهوره،وعلوه، فلا يكون شيء فوقه؛ لأن مجموع الاسمين يدلان علىٰ الإحاطة، والسعة، وأنه الظاهر، فلا شيء فوقه، والباطن، فلا شيء دونه.

قال ابن القيم: فأولية الله عز وجل سابقة علىٰ أولية كل ما سواه، وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه، فأوليته سبقه لكل شيء، وآخريته بقاؤه بعد كل شيء. وظاهريته سبحانه فوقيته، وعلوه علىٰ كل شيء. ومعنىٰ الظهور يقتضي العلو، وظاهر الشيء ما علا منه، وأحاط بباطنه، وبطونه سبحانه إحاطته بكل شيء بحيث يكون أقرب إليه من نفسه..، فمدار هذه الأسماء الأربعة علىٰ الإحاطة، وهي إحاطتان: زمانية، ومكانية....

الزمانية في قوله:﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ ﴾ ، والمكانية في قوله: ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ ﴾.

ثم أكد تمام الإحاطة في آخر الآية: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾. انتهىٰ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ٢] ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ في هذه الآية إثبات صفتين لله سبحانه وتعالىٰ: صفة العلم، وصفة الحكمة.

وصفة العلم صفة ذاتية لله تعالىٰ، وعلمه تعالىٰ من لوازم نفسه المقدسة، وبراهين علمه تعالىٰ ظاهرة مشاهدة في خلقه وشرعه، ومعلوم عند كل عاقل أنَّ الخلق يستلزم الإرادة، ولا بدَّ للإرادة من علم بالمراد؛ كما قال تعالىٰ: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}، والأدلة علىٰ وصف الله بالعلم كثيرة، ولا ينكرها إلا ضال أو معاند مكابر. قال الإمام أحمد: «إذا قال الرجل: العلم مخلوق؛ فهو كافر، لأنه يزعم أنَّ الله لم يكن له علم حتىٰ خلقه».

«وهو يعلم ما في السماوات السبع، والأرضين السبع، وما بينهما، وما تحت الثرىٰ، وما في قعر البحار، ومنبت كل شعرة وكل شجرة وكل زرع وكل نبات، ومسقط كل ورقة، وعدد ذلك، وعدد الحصىٰ والرمل والتراب، ومثاقيل الجبال، وأعمال العباد وآثارهم، وكلامهم، وأنفاسهم، ويعلم كل شيء، لا يخفىٰ عليه من ذلك شيء، وهو علىٰ العرش فوق السماء السابعة» .

انظر: ((المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة)) (١/ ٢٨٣، ٢٨٤).

والْحِكْمَةُ: صفةٌ ذاتيةٌ ثابتةٌ لله عز وجل، و(الحكيم) من أسمائه تعالىٰ، وهو ثابتٌ بالكتاب والسنة.

....

ومن أدلة الكتاب: قوله تعالىٰ: {وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: ١٨]. وقوله: {وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: ٢٢٨] . ومن السنة: حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: ((... وسبحان الله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم ...)). رواه مسلم (٢٦٩٦).

فالحكيم: مأخوذ من الحكمة، وله معنيان:

الأول: الحاكم العدل الذي له الحكم في الدنيا والآخرة كما في قوله تعالىٰ: {وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصص: (٧٠)].

الثاني: المُحكِم للأمور كي لا يتطرق إليها تغيير وفساد، كما في قوله تعالىٰ: {إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا} [فاطر: (٤١)]. فقد أحكم سبحانه وتعالىٰ السماوات والأرض عن الزوال وقوله تعالىٰ: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا} [الأنبياء: (٢٢)].

وحكم الله علىٰ نوعين:

النوع الأول: حكمُه الشرعي(الديني)؛ وهو ما جاءت به الرسل وأُنزلت به الكتب، كقوله تعالىٰ: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا} [المائدة: (٣٨)]، وقوله: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ} [النور: (٢)]. وهذا يجب الرضا به والانقياد له كالحكم في السرقة والزنا والخمر والقذف وغيرها.

النوع الثاني: حكمه الكوني(القدري)؛ وهو ما قضاه علىٰ عباده من الرزق والحياة والموت والمصائب. ومنه ما يستحب الرضا به، كالرضا بالفقر ونحوه، ومنه ما يحرم الرضا به كالفكر والمعصية ونحوهما .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]

الْخَبِيرُ صفةٌ ذاتيةٌ ثابتةٌ لله عز وجل بالكتاب والسنة، وذلك من اسمه (الخبير) .

ومن الأدلة أيضًا: وقوله: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: ٧٣]. والدليل من السنة: حديث عائشة رضي الله عنها؛ أَنَّ النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال لها في قصة تتبعها له إلىٰ البقيع: «ما لك يا عائش حشيًا رابية؟» قالت: قلت: لا شيء.قال: «لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير». رواه مسلم (٩٧٤).

ومن معاني (الخبير):

١– العالم بما كان وما يكون. انظر: لسان العرب، لابن منظور

٢– العالم بكنه الشيء، المطلع علىٰ حقيقته. انظر: شأنَّ الدعاء للخطابي (ص ٦٣).

فالفرق بين العلم والخَبْر: أَنَّ الخَبْر هو العلم بكنه المعلومات علىٰ حقائقها؛ ففيه معنىٰ زائد علىٰ العلم. انظر: الفروق لأبي هلال العسكري (ص ٧٤).

والشاهد من الآيتين إثبات ثلاثة أسماء: العليم، والحكيم، والخبير.

أما الصفات المستفادة من الآيتين فهي: ١ – العلم ٢– الحكمة ٣ – الخبرة.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾[سبأ: ١-٢].

الشرح المهذب على العقيدة الواسطية

قوله تعالىٰ: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا} إلىٰ آخر الآيات.

هذه الآيات التي ذكرها المُصَنِّف رحمه الله تدل علىٰ سَعة علمه سبحانه وعلىٰ إحاطته بما لا تبلغه علوم خلقه.

فإنه يعلم ما يلج في الأرض: أي ما يدخل في الأرض من حب وبَذْر ومياه، وكذلك الموتىٰ والدود والكنوز وغيرها.

ويعلم ما يخرج منها: من زرع وأشجار وعيون جارية ومعادن وغيرها،

ويعلم ما ينزل من السماء من ثلوج وأمطار وطير، وكذلك الوحي.

ويعلم ما يعرج إلىٰ السماء: ويصعد إليها من الأعمال الصالحة والدعاء والذكر، ومن الملائكة والأرواح وغيرها.

وختم الآية:بالرحيم والغفور: لأن الذين تعرج أعمالهم إلىٰ السماء هم المؤمنون الذين يستحقون الرحمة الخاصة، فقدم الرحيم، ومع استحقاقهم للرحمة فهم غير معصومين من المعصية إذ هي ممكنة منهم فإذا عصوا وتابوا فإن الله يغفر لهم ذنوبهم.والرحيم يدل علىٰ الرحمة وأنها رحمتان: رحمة خاصة للمؤمنين وهي رحمة القلوب من الهدىٰ والإيمان وحفظهم وتسديدهم. ورحمة عامة لجميع الخلق وتسمىٰ رحمة الأبدان، برزقهم لهم.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾: وعنده: تقديم الخبر (وعنده) على المبتدأ (مفاتح) لإفادة الحصر والاختصاص، فهي عنده وليست عند غيره، ومفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى هي خزائنه، وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم هذه المفاتيح بقوله؛ كما في البخاري من حديث ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه أنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ؛ إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ». فمفاتيح الغيب جاء بيانها على لسان النبي صلى الله عليه وسلم، وقد فسر هذه المفاتيح بما يلي: الأول: علم الساعة .

الثاني: نزول الغيث: والمراد به المطر، فإذا كان سبحانه هو الذي ينزل الغيث فهو أعلم بوقت نزوله. والتعبير في القرآن عن المطر يأتي بلفظ الغيث في الخير، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا} [الشورى: (٢٨)].

فما الحكمة من التعبير بالغيث دون المطر؟ الغيث: هو الذي تحيا به الأرض، أما المطر: فقد ينزل ولا تحيا به الأرض.

....

وقد أشار النبي صلىٰ الله عليه وسلم إلىٰ ذلك بقوله؛ كما في «صحيح مسلم» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم قَالَ: «لَيْسَتِ السَّنَةُ بِأَنْ لَا تُمْطَرُوا، وَلَكِنِ السَّنَةُ أَنْ تُمْطَرُوا وَتُمْطَرُوا وَلَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ شَيْئًا».

الثالث: علم ما في الأرحام، لقوله تعالىٰ: {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ} [لقمان: (٣٤)]. قد يقول قائل: تقدم الآن الطِّبُّ الحديث، وأصبحوا يعرفون: هل الجنين ذكر أو أنثىٰ، والله يقول: {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ}؛ فما الجواب عن ذلك؟

الجواب من وجهين: الوجه الأول: أنه قبل أن يتكون الجنين أو تنفخ فيه الروح لا يعلمون ذلك، ولا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالىٰ، أما بعد النفخ في الروح فيعلمون بذلك عن طريق الأجهزة.

الوجه الثاني: أن علمهم قاصر؛ فلا يعلمون متىٰ يولد الجنين، وهل يعيش أو لا، ولا يعلمون رزقه، وأجله، وشقي أو سعيد، لا يعلم ذلك إلا الله تعالىٰ.

الرابع: علم ما في الغد: وهذا مما اختص الله عز وجل به. قد يقول قائل: إن الإنسان قد يقول: إني أعلم ما سأفعل غدًا، وذلك إذا عزم علىٰ الفعل.

فكيف نقول: لا يعلم ما في غد إلا الله؟الجواب: قد يقول هذا وينوي ويعزم، لكن لا يتحقق، والواجب علىٰ المسلم ربط ذلك بالمشيئة، فلا يقل: سأعمل غدًا كذا، من دون ذكر مشيئة الله عز وجل، وقد يعاقَب إذا لم يذكر المشيئة.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر: ١١].

وَقَوْلُهُ: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

الشرح المهذب على العقيدة الواسطية

الخامس: وما تدري نفس بأي أرض تموت: يدخل في ذلك علم ساعة الموت.

وقوله تعالىٰ: {وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثىٰ وَلا تَضَعُ إِلاّ بِعِلْمِهِ} [فاطر: ١١]: أي هو عالمٌ بذلك لا يخفىٰ عليه من ذلك شيء.

وفي هذه الآيات دليل علىٰ إثبات صفة العلم، وهي من الصفات الذاتية، وعلمه سبحانه شامل لكل شيء، ومحيط به، فيعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

وَقَوْلُهُ: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢]. هذه الآية دلت علىٰ إثبات علم الله - عز وجل - وعلىٰ إثبات قدرته سبحانه، وهذا من المواضع الدالة علىٰ أن اقتران الأسماء والصفات يُعطيها حُسنًا مضاعفًا لأن من قواعد أهل السنة والجماعة في باب أسماء الله وصفاته أن أسماء الله حُسنىٰ، أي: بلغت الغاية في الحسن، ومن فروع هذه القاعدة أن اقتران بعض الأسماء ببعض يعطيها حسنًا مضاعفًا، فإذا قال الله عز وجل {إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا}.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

الشرح المهذب علىٰ العقيدة الواسطية

وكما في هذه الآية {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} ازداد حسن الاسم كيف ذلك؟ المخلوقين منهم من يعلم ولا يقدر، ومنهم من يقدر ولا يعلم، والله عز وجل له المثل الأعلىٰ، فالله عليم قدير علمه مصحوب بقدرته، وقدرته مبنية علىٰ علمه، فينتج عن ذلك الصواب والحق كما قرر في هذه الآية.

وَقَوْلُهُ: {إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات: (٥٨)].

في هذه الآية ثلاث صفات، واسمان لله تعالىٰ: فالأسماء: ١ - الرزاق. ٢ - المتين. والصفات: ١ - صفة القوة لله عز وجل. ٢ - صفة الرزق.

٣ - ما تضمنه اسم المتين، وقد فسره ابن عباس بالشدة.

و«الرزاق»: صيغة مبالغة من الرزق وهو العطاء. والرزق قسمان: عام وخاص:

١) الرزق العام: ما ينتفع به البدن؛ سواءٌ كان ذلك حلالًا أو حرامًا، وسواءٌ كان هذا المرزوق مؤمنًا أو كافرًا.

٢) الرزق الخاص: وهو ما يمُنُّ الله تعالىٰ به علىٰ بعض عباده؛ من العلم النافع والإيمان والعمل الصالح والرزق الحلال الذي يعين علىٰ طاعة الله.

وَقَوْلُهُ: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}: تقدم تقرير هذه الآية.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]
وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [الكهف: ٣٩].

وقوله: «{إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}».

(نِعِمَّا): مشتملة على: (نِعْمَ) وهي كلمة مدح، والمعنى: نِعْمَ الشيءُ الذي يعظكم الله به. ومَنْ أعظمُ واصف بهذه الكلمةِ «نِعْمَ»؟ الجواب: أعظم واصف هو الله تعالى، وأعظم مَن وُصِفَ بذلك الأنبياء. ومنهم أيوب عليه السلام في قوله تعالى: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [ص: (٤٤)].

قوله: {إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}، سمع الله نوعان: ١ - سمع الإدراك للأصوات (عام). ٢ - سمع الإجابة، إجابة السائلين والداعين (خاص)، وهذا النوع متعلق بمشيئة الله - تعالى -، وقدرته. قال تعالى: {إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ}، والمراد أنه يستجيب الدعاء. والشاهد من الآيتين السابقتين: إثبات السمع والبصر لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته. أما البصر فهو إدراك جميع المبصرات، فالله - جل وعلا - قد أحاط بصره جميع المبصرات لا تخفى عليه خافية، فكل ما خلقه الرب - تعالى -، فإنه يراه.

ثم ذكر المُصَنِّف أربعَ آيات: في صفة المشيئة، والإرادة، والتحليل، والحكم.

فالآية الأولى: قوله تعالى: {وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ} [الكهف: (٣٩)]. فيها إثبات عدد من الصفات.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾[البقرة: ٢٥٣].

ومنها: صفة المشيئة من قوله {مَا شَاءَ اللهُ}. والصفات الأخرىٰ المستنبطة: القوة من قوله: {لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ}. والألوهية من قوله: {اللهُ}.

أما صفة المشيئة -التي أراد المُصَنِّف الإشارة إليها هنا-:

فهي إرادة الله الكونية النافذة، وتكون فيما يحب وفيما لا يحب.

- فيما يحب: كالإيمان والطاعات وغير ذلك مما أمر الله به.

- فيما لا يحب: كالكفر والفساد، وغير ذلك مما نهىٰ الله عنه.

وإرادة الله ومشيئته الكونية نافذة علىٰ جميع العباد، ولا يستثنىٰ من ذلك أحد.

الآية الثانية: قوله تعالىٰ: {وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [البقرة: (٢٥٣)]. أي ما شاء الله لابد من وقوعه، فهي إرادة كونية قدرية فكل ما وجد فهو بمشيئة الله، و نثبت من هذه الآية ثلاث صفات:

أولًا: المشيئة من قوله: {وَلَوْ شَاءَ اللهُ}.

ثانيًا: الإرادة من قوله: {مَا يُرِيدُ}.

ثالثًا: الفعل من قوله: {يَفْعَلُ}.

وَقَوْلُهُ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ①﴾ [المائدة: ١]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

الآية الثالثة: قوله تعالىٰ: {أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ} [المائدة: (١)].

نثبت من هذه الآية ثلاث صفات: أولًا: التحليل من قوله: {أُحِلَّتْ}.

ثانيًا: الحكم من قوله {يَحْكُمُ}. ثالثًا: الإرادة من قوله: {مَا يُرِيدُ}.

الآية الرابعة: قال تعالىٰ: {فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} [الأنعام: (١٢٥)].

نثبت من هذه الآية خمسَ صفاتٍ: ١ - الإرادة. ٢ - الهداية. ٣ - شرح الصدور.

٤ - الإضلال. ٥ - الجَعْل. والإرادة تنقسم إلىٰ قسمين:

١) الإرادة الكونية: وهي المرادفة للمشيئة؛ (أراد) فيها بمعنىٰ (شاء)، وتكون فيما يحب الله وفيما لا يحب، ويلزم فيها الوقوعُ.

٢) الإرادة الشرعية: وهي المرادفة للمحبة، (أراد) فيها بمعنىٰ (أحبَّ)، وهي مختصة بما يحب سبحانه وتعالىٰ، ولا يلزم فيها الوقوعُ.

....

إشكال: كيف يريد الله ما لا يحب؟ ما يريده الله مما لا يحب، يترتبُ عليه جملةٌ من الحِكَم والمصالح الكثيرة. مثال ذلك: إرادة الله للكفر في الأرض يترتبُ عليه مجاهدةُ الكفار والدعوة إلىٰ الله، ونشر الحق، والصراع بين الحق والباطل، فإنَّ من أسباب ظهور الدين مقاومةَ هؤلاء الكفار.

إثبات صفة المحبة لله:

ثم ذكر ثماني آيات متعلقة بصفة المحبة لله. والمحبة لله عز وجل من الصفات الفعلية، وقد دل علىٰ إثباتها الكتاب والسنة والإجماع، ولكنها -كما يقولُ أهلُ السنة- علىٰ ما يليق بجلال الله وعظمته. وصفة المحبة من الصفات الفعلية الاختيارية، فإن كل ما تعلق بالمشيئة مما يتصف به الرب فهو من الصفات الاختيارية الفعلية؛ مثل كلامه، وسمعه، وبصره، وإرادته، ومحبته، ورضاه، ورحمته، وغضبه، وسخطه؛ ومثل: خلقه، وإحسانه، وعدله؛ ومثل: استوائه، ومجيئه، وإتيانه، ونزوله، ونحو ذلك من الصفات التي نطق بها الكتاب العزيز، والسنة. ولا يشكل عليك في هذا التمثيل ذكر الكلام، والسمع، والبصر، والإرادة حيث إنهم يمثلون بها للصفات الذاتية، فهي كذلك باعتبار النوع، وهي فعلية باعتبار الآحاد، والأفراد فتنبه،خلافًا للنُّفاة الذين نَفَوْا صفة المحبة لله عز وجل.

فما سبب هذا النفي الذي قالوا به؟

....

سبب النفي مخافةُ التشبيه؛ تشبيه الخالق بالمخلوق؛ يقولون: لا نثبت لله محبة؛ لأن المخلوق موصوف بها. والجواب: لله تعالىٰ محبة، وللمخلوق محبة، ولكن ليست محبةُ الله تعالىٰ كمحبة المخلوق، فمحبة الله تعالىٰ كما يليق بجلاله وكبريائه، أما محبة المخلوق الضعيف فعلىٰ قَدْر ضعفه ومسكنته، والله عز وجل قد أثبت في كتابه العزيز المحبة من الطرفين في قوله تعالىٰ: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة: (٥٤)]؛ أثبت له المحبة وأثبت لهم المحبة، فقوله: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ} هذه محبة الخلق، وقوله: {فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ} هذه محبة الله تعالىٰ.

ما أسباب محبة الله لعبده؟ هناك أسباب كثيرة؛ أهمُّها:

١) كثرة التأمل في نعم الله عز وجل، فهذا مما يزيد الإيمان ويعلِّق بالله عز وجل، ويوصل لهذه المنزلة العالية.

٢) محبة ما يحبه اللهُ تعالىٰ من الأقوال والأفعال والأعمال والأشخاص.

٣) كثرة ذكر الله تعالىٰ وشكره وحمده.

٤) اتباع سنة النبي صلىٰ الله عليه وسلم {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله}. وأحسن من تكلم في هذه المسألة ابنُ القيم رحمه الله، وخرج كلامه في رسالة مستلَّة من بعض كتبه بعنوان: «الأسباب الجالبة لمحبة الله».

وَقَوْلُـهُ: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة: ١٩٥].

الشرح المهذب على العقيدة الواسطية

قوله: قال تعالىٰ: {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: (١٩٥)].

أحسنوا: فعل أمر من الإحسان، ويطلق علىٰ معنيين:

الأول: إتقان العمل وإكماله وإخلاصه. فيكون المراد الإتيان بالعمل علىٰ أكمل أحواله وأحسنها وهذا في التعامل مع الرب تعالىٰ ولذا يقول النبي صلىٰ الله عليه وسلم: ((الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه)).

والمعنىٰ الثاني: التفضل والإنعام علىٰ الغير، لقوله صلىٰ الله عليه وسلم: ((إن الله كتب الإحسان علىٰ كل شيء)).رواه مسلم.

والإحسان نوعان: ١ - إحسان في عبادة الخالق بأن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه، وهو الجد في القيام بحقوق الله تعالىٰ علىٰ الوجه المطلوب.

٢ - إحسان في حقوق الخلق، وهو نوعان:

أ- إحسان واجب، وهو القيام بما يجب عليك للخلق بحسب ما توجه عليك من الحقوق من بر الوالدين وصلة الأرحام، والقيام بالحقوق الزوجية، وتربية الأولاد، والإنصاف في جميع المعاملات.

ب- إحسان مستحب، وهو ما زاد علىٰ ذلك من بذل نفع بدني أو مالي أو علمي أو توجيه لخير ديني أو مصلحة دنيوية.

﴿ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ [الحجرات: ٩].

وكل ما نَفَعَ الخلق أو أدخل السرور عليهم، أو أزال عنهم ما يكرهون فهو إحسان. ومن أفضل أنواع الإحسان وأجلها الإحسان إلىٰ من أساء إليك بقول أو فعل، قال تعالىٰ: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ} [المؤمنون: ٩٦].

وقد ذكر الله تعالىٰ أن من كانت طريقته الإحسان أحسن الله جزاءه.

قوله: قال تعالىٰ: {وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الحجرات: (٩)].

وأقسطوا: فعل أمر يقتضي الوجوب مأخوذ من الإقساط ففعله الرباعي أقسط وليس ثلاثي من قسط بل الهمزة تغير المعنىٰ تغييرًا كاملًا وتجعله عكس الثلاثي وضده تمامًا، وتسمىٰ همزة النفي، إذ أقسط بمعنىٰ عدل ، وقسط بمعنىٰ جار وظلم، قال تعالىٰ: { وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبًا} [الجن: ١٥]، والآية هنا: { إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ }، وفي الحديث الصحيح في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم:((إن المقسطين عند الله علىٰ منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا)).

فالله عز وجل يحب العدل، والعادلين في جميع أمورهم.

فبالعدل تحفظ: حقوق الرب، وهي عبادته وعدم الإشراك به. وبالعدل تحفظ حقوق الخلق من حفظ النفس بلا قتل ولا ضرب ولا شتم ولا غيبة.

﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[التوبة: ٧].

وحفظ العقول من السكر والمخدرات التي تفضي إلىٰ كل خبيث، وحفظ الأموال من السرقة والغصب والنهب وقطع الطريق ونحوها، وحفظ الأعراض من القذف والزنا وغيرهما، وبالعدل يكون الأمن، والرحمة، والمحبة، والألفة ، وسلامة الصدور، وتكون البركة ويعم الرخاء وتكثر الخيرات والنعم.

قوله: وقال تعالىٰ: {فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: (٧)]. أي إذا استقام أهل الشرك علىٰ العهد الذي بيننا وبينهم وجب أن نستقيم لهم وأن نوفي بعهدهم. والمعاهدون ينقسمون إلىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الذين أتموا عهدهم، فهؤلاء نتمم عهدهم.

القسم الثاني: الذين خانوا أو نقضوا، فهؤلاء ينتقض عهدهم، فلا وفاء لهم.

والقسم الثالث: من لم ينقض العهد لكن نخاف منه أن ينتقض العهد، فهؤلاء نبلغهم بأن لا عهد بيننا وبينهم، كما قال تعالىٰ: (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ) (لأنفال:٥٨).

والشاهد من الآية: قوله تعالىٰ: {إن الله يحب المتقين}، أي أهل التقوىٰ الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية بفعل الأوامر وترك النواهي.

والتقوىٰ هي التحرز بطاعة الله عن معصيته.

وهي كلمة جامعة لفعل المأمورات وترك المنهيات. وعرفت بتعاريف كثيرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ [البقرة: ٢٢٢].

ودرجات التقوى:

- أن يتقي الكفر بالدخول في الإسلام والرضا به، وهذا مقام الإسلام.
- أن يتقي العبد المعاصي والمحرمات، وهو مقام التوبة بدوامها.
- أن يتقي الشبهات، وهو مقام الورع؛ وذلك بترك ما لا نفع في الآخرة.

قوله: وقال تعالى: {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: (٢٢٢)].

في هذه الآية إثبات محبة الله للتوابين وللمتطهرين، وسببها توبتهم وطهارتهم.

والتواب صيغة مبالغة من التوبة ومعنى التواب: أي كثير التوبة،وكثير الرجوع إلى الله، كلما أذنب رجع وتاب، وهذه العبودية والذل والخوف والرجاء.

والتوبة: هي الرجوع عن الذنب والإقبال على الله. وشروطها خمسة:

- الإخلاص لله تعالى.
- وإصلاح الماضي بالندم على فعل الذنب.
- وإصلاح الحال بالنصح في التوبة وتطهير القلب بالاقلاع عن الذنب.
- وإصلاح المآل والمستقبل بملازمة العمل الصالح بالاستقامة وبالعزم على أن لايعود إلى الذنب مرة أخرى.
- أن تكون التوبة في وقتها بأن لا تكون عند الغرغرة وحضور الموت، أو عند طلوع الشمس من مغربها، فكل وقت من العمر وقت للتوبة إلا هذين الوقتين.

....

- ويزاد شرط سادس: وهو ما يتعلق بحقوق الآدميين، فيجب الاستحلال منهم بإرجاع حقوقهم وأموالهم وطلب العفو ممن ظلمهم بغيبة أو نحوها.

علامات التوبة الصادقة:

- الإنابة والرجوع إلىٰ الله والانقياد لأمره والاستسلام له.
- مخالفة هوىٰ النفس والشيطان.
- اتباع القرآن والسنة والعمل بهما، وحبهما.
- ملازمة الاستقامة والعمل الصالح والذكر والدعاء.
- إصلاح الحال وملازمة الخوف من الله ومراقبته بصدق التوبة.

وقوله: {ويحب المتطهرين}:

الطهارة هي النظافة.

وتنقسم إلىٰ قسمين:

طهارة حسية وهي طهارة البدن والثياب عن الأحداث والنجاسات ويلحق بهما طهارة المكان لأداء العبادة، وهذه الطهارة هي المقصودة في الآية.

وطهارة معنوية وهي طهارة القلب والجوارح من الآثام والذنوب.

وهي المذكورة في قوله تعالىٰ { إن الله يحب التوابين}.

وَقَوْلُهُ: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقوله: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ}.

قال ابن كثير: هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله.

وفي هذه الآية قد شرط الله لمحبته اتباع نبيه - صلى الله عليه وسلم -، فلا ينال تلك المحبة؛ إلا من أحسن الاتباع والاستمساك بهديه عليه السلام.

ومن علامات محبة النبي صلى الله عليه وسلم:

١ - إيثاره وتقديمه على النفس والولد والناس أجمعين كفعل أبي بكر رضي الله عنه معه في الهجرة، وكقول عمر: لأنت الآن أحب إلي من نفسي.

٢- بغض من أبغضه الرسول صلى الله عليه وسلم كبغض الكفرة والملحدين واليهود والنصارى وغيرهم ولو كانوا أقرباء.

٣- حب من أحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم كحبه للصحابة ، وآل بيته والنهي عن إيذائهم.

ثمرات محبة النبي صلى الله عليه وسلم:

١ - نيل محبة الله وغفران الذنب.

٢- مرافقته في الجنة لحديث المرء مع من أحب.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ [المائدة: ٥٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: ٤].

٣- نيل حلاوة الإيمان لحديث ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان..

٤- كمال الإيمان.

٥- دخول الجنة ومرافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وقوله: يحببكم الله: فيه إثبات صفة المحبة لله على الوجه اللائق به.

وقوله: { فَسَوْفَ يَاتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ}: فيها الرد على من نفى المحبة من الجانبين كالجهمية والمعتزلة. فقالوا: لا يُحِب ولا يُحَب، وأولوا محبة العباد له بمعنى محبتهم عبادته وطاعته، ومحبته للعباد بمعنى إحسانه إليهم وإثابتهم ونحو ذلك! وهذا باطل؛ لأن مودته ومحبته سبحانه وتعالى لعباده على حقيقتهما كما يليق بجلاله كسائر صفاته ليستا كمودة ومحبة المخلوق.

وقوله: {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ}

فهؤلاء الذين علق الله المحبة لهم بأعمالهم لهم عدة صفات:

أولاً: يقاتلون، فلا يركنون إلى الخلود والخمول والكسل والجمود الذي يضعف الدين والدنيا. ثانيًا: الإخلاص، لقوله: {فِي سَبِيلِهِ}.

ثالثًا: يشد بعضهم بعضًا، لقوله: {صَفًّا}.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤﴾ [سورة البروج:١٤].

رابعـًا: أنهم كالبنيان، والبنيان حصن منيع. خامسـًا: لا يتخللهم ما يمزقهم، لقوله: {مَّرْصُوصٌ}.

وقوله: {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} [البروج: ١٤].

تضمنت الآية إثبات اسمين من الأسماء الحسنىٰ، وهما: الغفور، والودود.

أما الأول: فهو مبالغة في الغفر، ومعناه الذي يكثر منه الستر علىٰ المذنبين من عباده، والتجاوز عن مؤاخذتهم.وأصل الغفر: الستر.

وأما الثاني: فهو من الوُدِّ الذي هو خالص الحب وألطفه، وهو إما من فعول بمعنىٰ فاعل، فيكون معناه: الكثير الود لأهل طاعته، والمتقرب إليهم بنصره لهم ومعونته. وإما من فعول بمعنىٰ مفعول، فيكون معناه: المودود لكثرة إحسانه، المستحق لأن يوده خلقه فيعبدوه ويحمدوه.

أسباب محبة الله:

١-قراءة القرآن بتدبر . ٢- التقرب إلىٰ الله بالنةافل بعد الفرائض.

٣- دوام ذكر الله تعالىٰ علىٰ كل حال.

٤- تقديم محبته علىٰ محبة النفس والولد والناس أجمعين.

٥- مطالعة القلب لأسمائه وصفاته بمعرفتها وتحقيق الامتثال.

٦- مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الظاهرة والباطنة .

وَقَوْلُهُ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠﴾ [النمل: ٣٠]. ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

٧- انكسار القلب بين يدي الله تعالىٰ بالذل والانقياد والاستسلام والطاعة.

٨- الخلوة وقت النزول الإلهي في الثلث الأخير من الليل بالصلاة والدعاء.

٩- مجالسة الصالحين والحرص علىٰ مجالسهم.

١٠-١٧- الاحسان، والتوبة، والتقوىٰ، والصبر، والتوكل، والعدل، والجهاد في سبيل الله، ومتابعة الرسول صلىٰ الله عليه وسلم، واتباع سنته ونصرتها.

إثبات صفة الرحمة لله عز وجل:

شرع المؤلف في بيان الآيات التي تثبت صفة الرحمة لله تعالىٰ علىٰ الوجه اللائق.

وذكر البسملة لتضمنها لاسمي الرحمن والرحيم. وتقدم الكلام عليهما.

ثم ذكر قول الله تعالىٰ: {ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما}. وسعت رحمتك وعلمك كل شيء، أي: رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأحوالهم، فرحمته سبحانه وسعت في الدنيا المؤمن والكافر والبر والفاجر، ولكنها يوم القيامة تكون خاصة بالمتقين.

والرحمة تنقسم إلىٰ قسمين:

الأول: رحمة عامة لجميع المخلوقات كالرزق، والصحة، والولد، ونحوها.

﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ٤٣﴾ [الأحزاب: ٤٣]. ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

الشرح المهذب على العقيدة الواسطية

الثاني: رحمة خاصة للمؤمنين وهي الرحمة الدائمة في الدنيا برحمة القلوب من المعاصي والآثام ورحمتها بالطاعة والانقياد والاستقامة والتوبة وهي دائمة في الآخرة بإدخالهم رحمته الدائمة وهي الجنة.

والرحمة المضافة إلى الله تعالى نوعان:

الأول: إضافة مفعول إلى فاعله كإضافة الجنة إليه سبحانه في الحديث: أنت رحمتي، وكإضافة المطر بأنه رحمة الله لعباده، فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه.

الثاني: إضافة صفة إلى موصوف فهي صفة من صفاته تضاف إليه.

وقوله: {وكان بالمؤمنين رحيما}: فيها إثبات الرحمة الخاصة للمؤمنين، وهي رحمة التسديد في الدنيا والنجاة في الآخرة.

وقوله: {ورحمتي وسعت كل شيء}: وهذا الآية في الرحمة العامة، وتكون للمؤمنين في الآخرة خالصة.

وقوله: {كتب ربكم على نفسه الرحمة} أي أوجب على نفسه ولم يوجبه أحد، وتفضل به سبحانه منه تفضلًا وإحسانًا. والكتابة إما كونية قدرية كهذه الآية، وإما كتابة شرعية كقوله تعالى: { كتب عليكم الصيام }.

﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾ [يوسف: ٦٤].

وقَوْلُهُ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩﴾. [المائدة: ١١٩].

قوله تعالىٰ: {فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}: أي: فسيرحم كِبَري وضَعفي، ووجدي بولدي، وأرجو من الله أن يردَّه علي، ويجمع شملي به، إنه أرحم الراحمين، فهو أرحم لعباده من كلِّ أحد.

فالحافظ والحفيظ مأخوذ من الحفظ، وهو الصيانة، ومعناه: الذي يحفظ عباده بالحفظ العام، فييسر لهم أقواتهم، ويقيهم أسباب الهلاك والعطب، وكذلك يحفظ عليهم أعمالهم، ويحصي أقوالهم، ويحفظ أولياءه بالحفظ الخاص، فيعصمهم عن مواقعة الذنوب، ويحرسهم من مكايد الشيطان، وعن كل ما يضرهم في دينهم ودنياهم.

إثبات صفة الرضى:

وقوله: {رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [المائدة: ١١٩].

فالله سبحانه وتعالىٰ موصوف بالرضىٰ، وهو يرضىٰ عن العمل، ويرضىٰ عن العامل، أما العمل، فمثل قوله تعالىٰ: {وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} [الزمر: ٧]، أي: يرض الشكر لكم. وكما في قوله تعالىٰ: {وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا} [المائدة: ٣].

وكما في الحديث الصحيح: «إن الله يرضىٰ لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا .. ».

رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، فهذا الرضىٰ متعلق بالعمل.

....

ويتعلق الرضىٰ أيضـًا بالعامل، مثل هذه الآية التي ساقها المؤلف: {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [المائدة: ١١٩].

فرضىٰ الله صفة ثابتة لله عز وجل، وهي في نفسه، وليست شيئًا منفصلاً عنه: كما يدعيه أهل التعطيل. ولو قال لك قائل: فسر لي الرضىٰ. لم تتمكن من تفسيره، لأن الرضىٰ صفة في الإنسان غريزية، والغرائز لا يمكن لإنسان أن يفسرها بأجلي وأوضح من لفظها. فنقول: الرضىٰ صفة في الله عز وجل، وهي صفة حقيقية، متعلقة بمشيئته، فهي من الصفات الفعلية، يرضىٰ عن المؤمنين وعن المتقين وعن المقسطين وعن الشاكرين ولا يرضىٰ عن القوم الكافرين، ولا يرضىٰ عن القوم الفاسقين، ولا يرضىٰ عن المنافقين، فهو سبحانه وتعالىٰ يرضىٰ عن أناس ولا يرضىٰ عن أناس، ويرضىٰ أعمالاً ويكره أعمالاً. ووصف الله تعالىٰ بالرضىٰ ثابت بالدليل السمعي، كما سبق، وبالدليل العقلي، فإن كونه عز وجل يثيب الطائعين ويجزيهم علىٰ أعمالهم وطاعاتهم يدل علىٰ الرضىٰ.

وقوله: {وَرَضُوا عَنْهُ}:

الرضا ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

١ – الرضا بالله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أنه قال:

وقوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾[النساء: ٩٣].

«من قال حين يسمع المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، رضيت بالله ربا وبمحمد رسولا وبالإسلام دينا غفر له ذنبه». وروىٰ أبو داود عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال: «من قال: رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد صلىٰ الله عليه وسلم رسولا، وجبت له الجنة».

٢- الرضا عن الله فيما شرعه لعباده من العبادات القولية والفعلية فيرضىٰ العبد بالذكر وبالصلاة وبالزكاة وبالحج وبسائر العبادات ونحوها.

٣- الرضا بقضاء الله وقدره.

وأما رضاهم عنه الأخروي؛ فهو رضا كل منهم بمنزلته مهما كان، وسروره بها؛ حتىٰ يظن أنه لم يؤت أحد خيرًا مما أوتي، وذلك في الجنة.

إثبات صفتي الغضب واللعن:

وقوله: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ} فيه إثبات صفة الغضب، وإثبات صفة اللعن، وأنه يلعن من يستحق اللعن، كما أنه تعالىٰ يرضىٰ عمن يستحق الرضا، ويغضب علىٰ من يستحق الغضب. وفي هذه الآية إثبات: غضب الله علىٰ قاتل المؤمن وإثبات لعن الله له.

....

والقتل هو إزهاق الروح، وهو ثلاثة أنواع:

١- قتل العمد: وهو قصد قتل آدمي معصوم بشيء يقتل غالبًا كالسكين والرصاص، والحجر الكبير ونحو ذلك.

٢- قتل شبه العمد: وهو أن يقصد جناية لا تقتل كضرب آدمي بيده أو عصا صغيرة أو نحو ذلك.

٣- قتل الخطأ: وهو أن لا يقصد القتل كأنيرمي صيدًا فتقع في إنسان ومنه حوادث السيارات اليوم غير المتعمدة، ومنه عمد الصبي والمجنون.

وفي العمد: القصاص، وفي شبه العمد والخطأ: الكفارة، والدية.

قوله: (ومن يقتل مؤمنًا): احترز بذلك عن قتل الكافر (متعمدا) العمد لغة: القصد. وشرعا: أن يقصد من يعلمه آدميًا معصومًا فيقتله بما يغلب على الظن موته به، واحترز بقوله: (متعمدًا) عن قتل الخطأ. وقوله: (فجزاؤه): أي عقابه. وقوله: (جهنم): علم على طبقة من طبقات النار. وقوله: (خالدًا فيها): أي مقيمًا، والخلود: هو المكث الطويل، وقوله: (ولعنه) أي طرده عن رحمته، فاللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله. وقوله: (وأعد له عذابا عظيما): أي هيأ له ذلك لعظيم ذنبه. وفي هذه الآية الوعيد الشديد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم، و جاء عن ابن عباس أنه قال: قاتل المؤمن متعمدًا لا تقبل له توبة.

....

ويقول: هذه الآية من آخر ما نزل ولم ينسخها شيء. وممن ذهب إلىٰ قوله: زيد بن ثابت، وأبو هريرة، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وعبيد بن عمير، والحسن، وقتادة، والضحاك، نقله ابن أبي حاتم.

والذي عليه الجمهور سلفًا وخلفًا: أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله، فإن تاب وأناب وعمل صالحًا بدل الله سيئاته حسنات وعوض المقتول عن ظلامته، قال تعالىٰ: {قل ياعبادي الذين أسرفوا علىٰ أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا } الآية، وهذا عام في جميع الذنوب.

وقال تعالىٰ: { إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء }الآية، وهذه الآية عامة في جميع الذنوب، عدا الشرك بالله، إلىٰ غير ذلك من الأدلة، وما يروىٰ عن ابن عباس وغيره فهو مبالغة وتشديد في الزجر عن القتل.

وقال ابن القيم: والتحقيق في المسألة أن القتل تتعلق به ثلاثة حقوق: حق الله، وحق المقتول، وحق الولي، فإذا سلم القاتل نفسه طوعًا واختيارًا ندمًا علىٰ ما فعله وخوفًا من الله وتوبة نصوحًا سقط حق الله بالتوبة، وحق الأولياء بالاستيفاء أو الصلح أو العفو، وبقي حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن، ويصلح بينه وبينه، فلا يضيع حق هذا ولا يبطل حق هذا. انتهىٰ.

وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم-: أنه ((يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان)).

فدخول النار علىٰ قسمين: دخول مطلق، ومطلق دخول.

فالأول: هو دخول المشركين والكفرة فهؤلاء يدخلونها ولا يخرجون منها أبدًا.

والثاني: وهو دخول الموحدين الذين عليهم ذنوب ومعاص. فهؤلاء يعذبون فيها بقدر سيئاتهم ثم يخرجون منها إن لم يحصل سبب للخروج منها قبل ذلك، من شفاعة، أو غيرها من الأسباب.

فالناس ينقسمون بحسب ما تقدم إلىٰ ثلاثة أقسام:

الأول: المشركون والكفار، كفر يخرج عن الملة الإسلامية، فهؤلاء يدخلون النار ويخلدون فيها دائما، ولا يخرجون منها أبدًا.

النوع الثاني: من مات علىٰ التوحيد وليس عليه ذنوب. فهذا يدخل الجنة من أول وهلة.

الثالث: من مات موحدًا وعليه ذنوب ومعاص. فهذا تحت مشيئة الله، إن شاء الله عفا عنه وأدخله الجنة من أول وهلة، وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه ثم أدخله الجنة. هذا ما عليه أهل السنة والجماعة، وهو الذي تواترت به الأدلة من الكتاب والسنة، عكس ما عليه المرجئة والخوارج والمعتزلة.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾

[محمد: ٢٨]. ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزخرف: ٥٥].

إثبات صفتي السخط والأسف:

وقوله: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ}.

السخط: هو عدم الرضا، والسخط إلىٰ الكراهة أقرب منه إلىٰ الغضب، فإن الغضب يعدىٰ بعلىٰ، والسخط يعدىٰ بها تارة، وبنفسه أخرىٰ، وبين السخط والغضب فرق واضح: كثيرًا ما يقابل السخط بالرضا، والغضب لا يقابل به.

فهذه الآية أفادت إثبات صفة السخط والرضا، وأنه -سبحانه وتعالىٰ- يسخط ويرضىٰ حقيقة، كما يليق بجلاله وعظمته، فيجب إثبات ذلك الوجه اللائق بجلاله وعظمته، هذا قول أهل السنة والجماعة، وكل ما ورد في الكتاب والسنة يجب إثباته علىٰ الوجه اللائق بجلاله وعظمته، والباب كله واحد.

وقوله: {فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ}: أي ذلك الضرب والقبض لأرواحهم بهذه الشدة بسبب اتباعهم ما يسخط الله من الكفر وعداوة الرسول، وبسبب كراهتهم رضوانه؛ أي ما يرضيه من الإيمان والعمل الصالح. وآسفونا أي: أغضبونا.

والأسف جاء في القرآن علىٰ معنيين: علىٰ معنىٰ الغضب كما في هذه الآية، وجاء بمعنىٰ الحزن، وليس هو المراد هنا. وإنما هو من صفات المخلوقين كما في قصة موسىٰ: {غَضْبَانَ أَسِفًا}. والأسيف الحزين،

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٦].

مثل قوله: «إن أبا بكر رجل أسيف إذا قرأ القرآن»، والله سبحانه منزه عن الحزن.

إثبات صفة الانتقام من المجرمين لله تعالى:

وقوله: (انتقمنا منهم): أي عاقبهم -سبحانه- بالغرق وغيره من العقوبات، والانتقام: هو أن يبلغ في العقوبة حدها، وفي الآية إثبات صفة الانتقام.

وهل من أسمائه -سبحانه- المنتقم؟ الجواب: ليس من أسماء الله الحسنىٰ الثابتة عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم، وإنما جاء في القرآن مقيدًا كقوله سبحانه: {إنا من المجرمين منتقمون}، وقوله: {والله عزيز ذو انتقام}.

فيوصف الله عز وجل بأنه (ذو انتقام) ، وأنه ينتقم من المجرمين؛ كما يليق به سبحانه، وهي صفةٌ فعليةٌ ثابتةٌ بالكتاب والسنة.

إثبات صفة الكُرْه لله تعالى

قوله: {وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ} فيه إثبات صفة الكره لله سبحانه وتعالىٰ، ولكنه علىٰ ما يليق بجلاله وعظمته. ومعنىٰ: (كره الله انبعاثهم): أي أبغض خروجهم معكم إلىٰ الغزو. وقوله: (فثبطهم): أي كسلهم، والتثبيط: رد الإنسان عن الشيء الذي يفعله، أي أنه -سبحانه وتعالىٰ- كسلهم عن الخروج للغزو قضاء وقدرا، وإن كان قد أمرهم بالغزو وأقدرهم عليه، ولكن ما أراد إعانتهم؛ بل خذلهم وثبطهم لحكمة يعلمها سبحانه وتعالىٰ: {لا يسأل عما يفعل وهم يسألون }.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠] .

وقال صلىٰ الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ المالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ». وهل هي كراهة للعمل أو للعامل؟ كراهة لهما كليهما، فقد قال صلىٰ الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ»، وفيه: «وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا، فَأَبْغِضْهُ». هذا البغض للعامل، أما البغض للعمل فكما في الآية: {وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ} .

إثبات صفة المقت لله تعالى:

وَقَوْلُهُ: {كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف:٣]،

قوله: {كَبُرَ مَقْتًا} قوله: (كبر): أي عظم.

والمقت هو أشد البغض.

وفي هذه الآية إثبات صفة المقت لله علىٰ ما يليق بجلاله. وهي صفةٌ فعلِيَّةٌ خبريَّةٌ ثابتةٌ لله عز وجل بالكتاب والسُّنَّة، وقال شيخ الإسلام: وكذلك وصف نفسه بأنه يمقت الكفار، ووصفهم بالمَقْت، فقال: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ... } ، وليس المَقْت مثل المَقْت.

وفي الآية الحث علىٰ الوفاء بالعهد، والنهي الأكيد عن الخلف في الوعد وغيره.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ ﴾ [الأنعام: ١٥٨] .

إثبات صفة الإتيان والمجيء والنزول يوم القيامة لفصل القضاء

وقوله: { هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلىٰ الله ترجع الأمور}: فقوله: (هل): حرف استفهام.

و(ينظرون): أي ينتظر الكفار، يقال: نظرته وانتظر به بمعنىٰ واحد، إلا إذا عدي بإلىٰ، أو ذكر الوجه، فمعناه النظر، أو عدي بفي فمعناه: التفكر والاعتبار.

وقوله: (إلا أن يأتيهم الله): أي لفصل القضاء بينهم يوم القيامة، فيجزي كل عامل بعمله إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. وقوله: (في ظلل): جمع ظلة، والظلة: ما أظلك وسترك. وقوله: (من الغمام): أي السحاب الأبيض الرقيق، سمي غماما؛ لأنه يغم، أي يستر. وقوله: (والملائكة): أي: والملائكة يجيئون في ظلل من الغمام، ففيه إثبات مجيء الملائكة يوم القيامة؛ لأنهم يحيطون بالإنس والجن، ثم ينزل الله –سبحانه– لفصل القضاء بينهم. قوله: (وقضي الأمر): أي تم الأمر. قوله: (وإلىٰ الله ترجع الأمور): أي تصير أمور العباد إلىٰ الله في الآخرة.

وقال ابن القيم: نزوله –سبحانه– إلىٰ الأرض يوم القيامة تواترت به الأحاديث والآثار، ودل عليه القرآن صريحًا، كما في هذه الآيات. انتهىٰ.

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢﴾ [الفجر: ٢١-٢٢]. ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٢٥﴾ [الفرقان: ٢٥].

الشرح المهذب على العقيدة الواسطية

وقوله تعالىٰ (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك): فقوله: (إلا أن تأتيهم الملائكة): أي لقبض أرواحهم.

وقوله: (أو يأتي ربك): أي يوم القيامة لفصل القضاء بين العباد.

وقوله: (أو يأتي بعض آيات ربك): وهو طلوع الشمس من مغربها، وطلوعها من مغربها هو أحد أشراط الساعة الكبار، وإذا طلعت من مغربها أغلق باب التوبة، وإذا رآها الناس طلعت من مغربها آمنوا أجمعون، ولكن لا يقبل لأحد توبة ما لم يكن آمن من قبل ذلك، كما في الصحيحين، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم-: ((لا تقوم الساعة حتىٰ تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذاك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل)).

وقوله: {كلا إذا دكت الأرض دكا دكا. وجاء ربك والملك صفا صفا}:

قوله:(كلا): هي حرف ردع وزجر.

قوله: (دكت الأرض): أي زلزلت حتىٰ ينهدم كل بناء عليها وينعدم.

قوله: (دكا دكا): أي دكا بعد دك، أي كرر الدك عليها حتىٰ عادت هباء منبثا.

قوله: (وجاء ربك): أي لفصل القضاء بين عباده.

قوله: (والملك): أي جنس الملائكة.

قوله: (صفًا صفًا): أي يصفون صفًا بعد صف.

وقوله: {ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا}.

قوله: (ويوم تشقق): المراد باليوم يوم القيامة، وتشقق السماء أي: انفطارها.

قوله: (بالغمام): أي يخرج منها الغمام، وهو السحاب الأبيض.

وحينئذ تنزل الملائكة إلىٰ الأرض فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر، ثم يجيء الرب لفصل القضاء بين عباده.

فهذه الآيات أفادت إثبات المجيء والنزول والإتيان لله -سبحانه وتعالىٰ- كما يليق بجلاله وعظمته، وهذه من صفاته -سبحانه- الفعلية.

ودلت هذه الآيات أيضًا علىٰ أن نزوله -سبحانه وتعالىٰ- وإتيانه ومجيئه ونحو ذلك من أفعاله أنه حقيقة كما يليق بجلاله وعظمته، إذ الأصل الحقيقة، ولا صارف عن ذلك، خلافًا لأهل البدع.

ودلت علىٰ أنه نزول وإتيان ومجيء بذاته -سبحانه وتعالىٰ- كما يليق بجلاله وعظمته، خلافا لأهل البدع الذين ينفون ذلك.

ولابن القيم كلام حسن مطول في الكلام علىٰ هذا الموضع تحسن مراجعته كما في مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة لابن الموصلي ص ٤٤٨.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن: ٢٧].

إثبات صفة الوجه:

وقوله: {كل من عليها فان ويبقىٰ وجه ربك ذو الجلال والإكرام}:

أخبر سبحانه أن كل من علىٰ الأرض يعدم ويموت، ويبقىٰ وجهه سبحانه.

قال الشعبي: إذا قرأت { كل من عليها فان} فلا تسكت حتىٰ تقرأ { ويبقىٰ وجه ربك ذو الجلال والإكرام}. وهذا من فقهه في القرآن وكمال علمه، إذ المقصود الإخبار بفناء من عليها مع بقاء وجهه سبحانه، فإن الآية سيقت لتمدحه بالبقاء وحده، ومجرد فناء الخليقة ليس فيه مدح، إنما المدح في بقائه بعد فناء خلقه، فهي نظير قوله: {كل شيء هالك إلا وجهه} [القصص: ٨٨].

وقوله: { ويبقىٰ وجه ربك}: فيه إثبات صفة الوجه لله، وهو من الصفات الذاتية كاليدين، والعينين، وغير ذلك من الصفات، فعلىٰ العبد الإيمان بها، والتسليم واعتقاد أنها حقيقة تليق بجلال الله وعظمته، وعلىٰ هذا مضىٰ الصحابة والتابعون والأئمة. والبقاء صفةٌ ذاتيةٌ خاصةٌ بالله عز وجل ثابتةٌ بالكتاب العزيز، وقد عَدَّ بعضهم (الباقي) من أسماء الله تعالىٰ، ولا دليل معهم.

ومعنىٰ الباقي: الدائم، الموصوف بالبقاء، الذي لا يستولي عليه الفناء، وليست صفة بقائه ودوامه كبقاء الجنة والنار ودوامهما، وذلك أنَّ بقاءه أبدي أزلي.

وبقاء الجنة والنار أبدي غير أزلي.

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

فالأزلي ما لم يزل، والأبدي ما لا يزال، والجنة والنار كائنتان بعد أن لم تكونا.

والْجَلالُ صفةٌ ذاتيةٌ ثابتةٌ بالكتاب والسنة، و(الجليل) ليس من أسمائه تعالىٰ.

وقوله: {ذو الجلال والإكرام}: أي ذو العظمة والكبرياء والسلطان، وهي صفة للوجه، والوجه صفة للذات جل جلاله. وقوله: (والإكرام): أي المكرم لأنبيائه وعباده الصالحين، وقيل: ذو الجلال أي: هو المستحق لأن يجل ولأن يكرم، والإجلال يتضمن التعظيم، والإكرام يتضمن الحمد والمحبة، والإجلال من جنس التعظيم، والإكرام من جنس الحب والحمد.

قوله: {كل شيء هالك إلا وجهه}: أي أن جميع أهل الأرض وأهل السماء سيموتون ويذهبون إلا من شاء الله، ولا يبقىٰ إلا وجهه -سبحانه وتعالىٰ-، والمستثنىٰ من الهلاك والفناء ثمانية، نظمها السيوطي بقوله:

ثمـانية حكم البقـاء يعمـها من الخلق والباقون في حيز العدم
هي العرش و الكرسي نار وجنة وعجب وأرواح كذا اللوح والقلم

وأما قوله: (كل شيء هالك)، وقوله: (كل من عليها فان) فإن المراد كل شيء كتب عليه الفناء والهلاك هالك، والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء، وكذا العرش فإنه سقف الجنة، والكرسي.. إلىٰ آخرها، فإن عموم (كل) في كل مقام بحسبه، ويعرف ذلك بالقرائن.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

كقوله: {تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرىٰ إلا مساكنهم } ومساكنهم شيء لم تدخل في عموم كل شيء؛ لأن المراد تدمر كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة، وكقوله عن بلقيس: {وأوتيت من كل شيء} فالمراد من كل شيء يحتاج إليه الملوك، وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام، إذ المراد أنها ملكة تامة الملك.

إثبات صفة اليدين:

قوله: (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي): أي يقول - سبحانه وتعالىٰ- مخاطبا لإبليس لما امتنع من السجود لآدم: {ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي} أي إنه سبحانه باشر خلقه بيده، ففيه إثبات اليدين لله - سبحانه وتعالىٰ-، وأنهما يدان حقيقة لائقتان بجلاله وعظمته، وفيها الرد علىٰ من زعم غير ذلك ممن صادم أدلة الكتاب والسنة، واتبع هواه وعطل هذه الصفة، وزعم أن المراد باليد القدرة أو النعمة كما تقوله الجهمية والمعتزلة وأشباههم.

وهذا التأويل الذي زعموه تأويل فاسد مصادم لأدلة الكتاب والسنة المتكاثرة الصريحة في إثبات اليدين صفة لله سبحانه وتعالىٰ، فلو كان المراد باليد القدرة لوجب أن يكون له -سبحانه- قدرتان.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: ٦٤] .

وقد أجمع المسلمون علىٰ أنه لا يجوز أن يكون له قدرتان، وكذلك لا يجوز أن يقال خلق آدم بنعمتين؛ لأن نعم الله علىٰ آدم وغيره لا تحصىٰ.

قال ابن القيم: ورد لفظ اليد في الكتاب والسنة وكلام الصحابة والتابعين في أكثر من مائة موضع ورودا متنوعًا متصرفًا فيه مقرونًا بما يدل علىٰ أنها يد حقيقة من الإمساك، والطي، والقبض والبسط، والنضح باليد، والخلق باليدين، والمباشرة بهما، وكتب التوراة بيده وغرس جنة عدن بيده. وقوله: {بل يداه مبسوطتان } فقطع بالضرورة أن المراد: يد الذات، لا يد: القدرة والنعمة، فإن السياق والتركيب لا يحتمله ألبتة، انتهىٰ.

وقد رد ابن القيم علىٰ المبتدعة الذين عطلوا صفة اليد، وزعموا أن المراد باليد: القدرة أو النعمة، أو غير ذلك من التأويلات الفاسدة من وجوه عديدة أنهاها إلىٰ عشرين وجها، وساق الأدلة الكثيرة الصريحة في إثبات اليد لله –سبحانه وتعالىٰ– حقيقة، كما يليق بجلاله وعظمته.

وقوله:{وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} [المائدة:٦٤]،

قوله: (يد الله مغلولة): قال ابن عباس: المراد بخله. فالغل كناية عن البخل.

....

تعالىٰ الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

قوله: (غلت أيديهم): أي أمسكت عن الخير.

وقوله: (بل يداه مبسوطتان): أي بالفضل والعطاء، فهذه الآية كسابقتها فيها إثبات صفة اليدين لله -سبحانه وتعالىٰ- كما يليق بجلاله وعظمته.

إثبات صفة العينين:

ذكر المصنف ثلاث آيات في صفة العينين لله تعالىٰ، ومذهب أهل السنة إثبات العينين علىٰ ما يليق بجلاله وعظمته. وجاء في بعض الآيات ذكر العين بالجمع {بِأَعْيُنِنَا} وجاء بالإفراد {عَلَىٰ عَيْنِي} فكيف نجمع بين هذه الآيات؟

الجواب: قوله {وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي} جاءت بالإفراد لأن المفرد إذا أضيف يعم، وأما قوله {بِأَعْيُنِنَا} فجاءت بالجمع؛ لأن أقل الجمع اثنين، وهذا علىٰ رأي جماعة من أهل اللغة، وأما إذا قيل: إن أقل الجمع ثلاثة، فلا يستقيم هذا الجواب، ويكون الجواب الصحيح أن الجمع هنا للتعظيم.

فدلت هذه النصوص دلت علىٰ إثبات عينين لله علىٰ ما يليق بجلاله، وهي صفة ذاتية خبرية، فالله لم يزل ولا يزال متصفًا بها، وسبق معنا أن الصفة الذاتية هي التي لا تنفكُّ عن الله تعالىٰ بل لم يزل ولا يزال موصوفًا بها.

وَقَولُهُ: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨].

فقوله: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}: الصبر لغة: الحبس والمنع.

وهو حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي والتسخط، وحبس الجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب. ذكره ابن القيم، وأفادت الآية وجوب الصبر قال ابن القيم: هو واجب بالإجماع، انتهىٰ.

وينقسم الصبر إلىٰ ثلاثة أقسام: صبر علىٰ طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر علىٰ أقدار الله المؤلمة. زاد شيخ الإسلام ابن تيمية: وصبر علىٰ الأهواء المضلة، والنوعان الأولان أفضل من الأخير، وهو الصبر علىٰ أقدار الله المؤلمة، صرح بذلك السلف منهم سعيد بن جبير وميمون بن مهران وغيرهما، والنوع الأول أفضل من النوع الثاني. قال ابن رجب: وأفضل أنواع الصبر: الصيام، فإنه يجمع أنواع الصبر الثلاثة. قال ابن القيم: وتمام الصبر أن يكون كما قال الله: {والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم} الآية.وأقواه أن يكون بالله معتمدًا عليه لا علىٰ نفسه، ولا علىٰ غيره من الخلق. انتهىٰ.

وقوله: (فإنك بأعيننا): أي بمرأىٰ منا، وتحت حفظنا وكلاءتنا {والله يعصمك من الناس}. قال ابن القيم: وهذا يتضمن الحراسة والكلاءة والحفظ للصابر لحكمه -سبحانه وتعالىٰ-، وفيها معية الله -سبحانه وتعالىٰ- للصابر لحكمه -سبحانه- وحفظه، وفيها إثبات فعل العبد حقيقة، وأدلة ذلك أكثر من أن تحصر.

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾[القمـــــر: ١٣-١٤] . ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ۝٣٩﴾ [طه: ٣٩].

وقوله: {وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ...}.

قوله: (وحملناه): أي نوح عليه الصلاة والسلام. وقوله: (علىٰ ذات ألواح): أي علىٰ سفينة ذات ألواح: خشب السفينة العريض. وقوله: (ودسر): أي المسامير التي تشد بها الألواح، يقال: دسرت السفينة، إذا شددتها بالمسامير.

وقوله: (تجري بأعيننا): أي بأمرنا بمرأىٰ منا تحت حفظنا وكلاءتنا، والنون للتعظيم. وقوله: (جزاء لمن كان كفر): أي جزاء لهم علىٰ كفرهم، وانتصارا لنوح عليه السلام عليهم.

وقوله: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي}.

قوله: (وألقيت): أي وصنعت (عليك محبة مني): أي إن الله أحبه وحببه إلىٰ خلقه. وقوله: (ولتصنع علىٰ عيني): أي بمرأىٰ ومنظر مني، والمعنىٰ أن الله أحب موسىٰ وحببه إلىٰ خلقه، ورباه بمرأىٰ منه سبحانه.

قال ابن القيم: والفرق بين قوله: (ولتصنع علىٰ عيني)، وقوله: (تجري بأعيننا) أن الآية الأولىٰ وردت في إظهار أمر كان خفيًا، وإبداء ما كان مكتومًا، فإن الأطفال إذ ذاك كانوا يتغذون ويصنعون سرًا، فلما أراد أن يصنع موسىٰ ويغذىٰ ويربىٰ علىٰ حال أمن وظهور دخلت (علىٰ) في اللفظ تنبيها علىٰ المعنىٰ.

لأنها تعطي الاستعلاء، والاستعلاء: ظهور وإبداء، فكأنه يقول: وتصنع على أمن لا تحت خوف، وذكر العين لتضمنها معنى الرعاية والكلاءة.

وأما قوله: (تجري بأعيننا) فإنه يريد برعاية منا وحفظ، ولا يريد إبداء شيء ولا إظهاره بعد كتم، فلم يحتج في الكلام إلى معنى(على)بخلاف ما تقدم. اهـ.

وفي هذه الآية الكريمة إثبات محبة الله -سبحانه- لعبده موسى، وتحبيبه لخلقه، وفيها: عناية الله -سبحانه وتعالى- بعبده موسى وتربيته على مرأى منه، وهذه عناية خاصة ومعية لعبده موسى تقتضي حفظه وكلاءته وعنايته.

إثبات صفتي السمع والبصر:

وَقَوْلُهُ: {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة:١]،

قوله: (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها): أي تُرَاجِعُك أيها النبي في شأن زوجها، وهي خولة بنت ثعلبة، وزوجها أوس بن الصامت، وذلك حين ظاهر منها زوجها، وقال لها: أنت علي كظهر أمي، فأتت النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((قد حرمت عليه)) فقالت: إن لي صبية صغارًا إن ضممتهم إلي جاعوا، وإن ضممتهم إليه ضاعوا، فقال: ((قد حرمت عليه)).

....

الشرح المهذب علىٰ العقيدة الواسطية

فقالت: أشكو إلىٰ الله فاقتي وجهدي، وكلما قال: حرمت عليه، جعلت تهتف وتشكو. وقوله: (وتشتكي): أي تظهر ما بها من المكروه.

وقوله: (والله يسمع تحاوركما): أي مراجعتكما الكلام، من حار إذا رجع.

قوله: (إن الله سميع بصير): أي أحاط سمعه بجميع المسموعات، وبصره بجميع المبصرات، فلا يخفىٰ عليه خافية، وكثيرًا ما يُقْرِن -سبحانه- بين هذين الاسمين (السميع والبصير) فكل من السمع والبصر محيط بجميع متعلقاته الظاهرة والباطنة، فالسميع: هو الذي أحاط سمعه بجميع المسموعات، والبصير: هو الذي أحاط بصره بجميع المبصرات.

وفي هذه الآية الكريمة إثبات السمع لله -سبحانه وتعالىٰ-، وأنه سميع، ويسمع، أحاط سمعه بجميع المسموعات، وكل ما في العالم العلوي والسفلي من الأصوات يسمعه -سبحانه وتعالىٰ-، سواء السر والعلانية.

قالت عائشة رضي الله عنها: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشتكي إلىٰ رسول الله وأنا في جانب الحجرة يخفىٰ علي بعض كلامها فأنزل الله قوله: {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها} الآية.

وفي هذه الآية الشكوىٰ إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، وأن الشكوىٰ إليه -سبحانه- لا تنافي الصبر كهذه الآية، وكشكاية يعقوب إلىٰ الله.

وأما الشكوىٰ إلىٰ مخلوق فإنها تنافي الصبر، والشكوىٰ نوعان:

شكوىٰ بلسان المقال، وشكوىٰ بلسان الحال، وفعلها أعظم.

وأما إخبار المخلوق بالحال فإن كان للاستعانة بإرشاده أو معاونته لم يقدح ذلك في الصبر كإخبار المريض للطبيب، وقد كان النبي إذا دخل علىٰ مريض يسأله عن حاله، ويقول: كيف تجدك، انتهىٰ. من كلام ابن القيم بتصرف.

فائدة: وفعل السمع يراد به أربعة معان:

(أحدها): سمع إدراك ومتعلقه الأصوات.

(الثاني): سمع فهم وعقل ومتعلقه المعاني.

(الثالث): سمع إجابة وعطاء ما سئل.

(الرابع): سمع قبول وانقياد.

فمن الأول: {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها} و {لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء}.

ومن الثاني: قوله: {لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا} ليس المراد سمع مجرد الكلام، بل سمع الفهم والعقل. ومنه: {سمعنا وأطعنا}.

ومن الثالث: "سمع الله لمن حمده" وفي الدعاء المأثور: اللهم اسمع. أي أجب وأعط ما سألتك.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾

[آل عمران: ١٨١].

الشرح المهذب على العقيدة الواسطية

ومن الرابع: قوله تعالىٰ: {سماعون للكذب} أي قابلون له، ومنقادون له علىٰ أصح القولين. {وفيكم سماعون لهم} أي قابلون ومنقادون. وقيل: عيون وجواسيس، وليس بشيء.

إذا عرف هذا فسمع الإدراك يتعدىٰ بنفسه، وسمع القبول يتعدىٰ باللام تارة وبمن أخرىٰ، وهذا بحسب المعنىٰ، فإذا كان السياق يقتضي القبول عدي بمن؛ وإن كان يقتضي الانقياد عدي باللام.

وأما سمع الإجابة فيتعدىٰ باللام نحو "سمع الله لمن حمده" لتضمنه معنىٰ استجاب له؛ ولا حذف هناك وإنما هو متضمن.

وأما سمع الفهم فيتعدىٰ بنفسه؛ لأن مضمونه يتعدىٰ بنفسه فلله تعالىٰ سمع يدرك به المسموعات، وبصر يدرك به المرئيات بلا تكييف.

«بدائع الفوائد – ط عطاءات العلم» (٢/ ٥٠٧).

وَقَوْلُهُ: {لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ}:

جاء في سبب نزول هذه الآية: أن اليهود حين سمعوا قوله: (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا): قالوا: إن إله محمد يستقرض منا، فنحن إذا أغنياء وهو فقير.

وضعفه بعضهم لجهالة بعض رواته، وهو مما يحتمل.

وَقَوْلُهُ: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الزخرف: ٨٠] .

وفي قوله: (سنكتب ما قالوا): أي سنأمر الحفظة بكتابة ما قالوا في الصحائف.

أفادت هذه الآية كغيرها من الآيات والأحاديث إثبات صفة السمع لله كما يليق بجلاله، وفي قوله: (لقد سمع الله) تحذير وتخويف، فإنه ليس المراد به مجرد الإخبار بالسمع، لكن المراد مع ذلك الإخبار بما يترتب علىٰ ذلك من المجازاة بالعدل، وأفادت إثبات وجود الحفظة وأنهم يكتبون ما يقال، وسيأتي الكلام علىٰ الحفظة.

وقوله: { أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلىٰ ورسلنا لديهم يكتبون}:

السر: هو حديث الإنسان بينه وبين نفسه أو غيره في خفية.

والنجوىٰ: هو ما يتحدث به الإنسان مع رفيقه ويخفيه عن غيره.

قوله: (بلىٰ): أي نسمع سرهم ونجواهم، فهو -سبحانه- السميع الذي أحاط سمعه بجميع المسموعات.

قوله: (ورسلنا): أي الملائكة الحفظة للأعمال (لديهم): أي عندهم.

قوله: (يكتبون): أي يكتبون ما يقولون وما يفعلون.

فهذه الآية فيها تحذير وتخويف، فإن طريقة القرآن بذكر العلم والقدرة تهديدًا وتخويفًا لترتب الجزاء عليها كهذه الآية.

وليس المراد به مجرد الإخبار بالقدرة والعلم، لكن الإخبار مع ذلك بما يترتب عليهما مع الجزاء بالعدل، انتهىٰ. من كلام شيخ الإسلام.

وفي هذه الآية: دليل علىٰ إثبات صفة السمع وإحاطته إحاطة تامة بكل مسموع، وفيها دليل علىٰ وجود الملائكة الحفظة، وأنهم يكتبون كل ما قال العبد أو فعل أو نوىٰ أو هم به؛ لأن النية فعل القلب، فدخلت في عموم قوله: { يعلمون ما تفعلون} ويشهد لذلك قوله -صلىٰ الله عليه وسلم-: ((إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها عليه، وإذا هم عبدي بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة، وإن عملها فاكتبوها له عشرا)).

ويجب الإيمان بالحفظة، والأدلة علىٰ إثبات وجودهم من الكتاب والسنة كثيرة، قال تعالىٰ: {ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد} وقوله: {وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون}. والرقيب والعتيد ملكان موكلان بالعبد، يجب أن نؤمن بهما ونصدق بأنهما يكتبان أفعاله. وهما لا يفارقان العبد بحال، وقيل: بل عند الخلاء، وقال الحسن: إن الملائكة يجتنبون الإنسان علىٰ حالين: عند غائطه، وعند جماعه، ومفارقتهما للمكلف حينئذ لا يمنع من كتابتهما ما يصدر منه في تلك الحال، كالاعتقاد القلبي يجعل الله لهما أمارة علىٰ ذلك.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤﴾[العلق: ١٤] .

وَقَوْلُهُ:﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[الشعراء: ٢١٨-٢١٩].

﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وقوله: (إنني معكما): يقول -سبحانه- لكليمه موسىٰ عليه السلام وأخيه هارون: (إنني معكما) أي بحفظي ونصري وكلاءتي وتأييدي.

وقوله: (أسمع وأرىٰ): أي أسمع كلامكما وكلامه وأرىٰ مكانكما ومكانه، ولا يخفىٰ علي شيء من أمركم، فأنا معكما بحفظي ونصري، وهذه المعية الخاصة التي تقتضي الحفظ والنصر والتأييد والإعانة. كقوله: {كلا إن معي ربي سيهدين}، وقول النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: ((ما ظنك باثنين الله ثالثهما لاتحزن إن الله معنا)).

والمعية تنقسم إلىٰ قسمين: معية خاصة ومعية عامة، فالعامة: هي معية العلم والإحاطة، كقوله سبحانه: {وهو معكم أينما كنتم}.

والثانية: وهي المعية الخاصة، وهي معية القرب. كما تقدم، كقوله: { إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون}.

والفرق بينهما أنها إذا جاءت المعية في سياق المحاسبة والمجازاة والتخويف فهي عامة، وإذا أتت في سياق مدح أو ثناء فهي معية خاصة.

....

وكلا المعيتين منه -سبحانه- مصاحبة للعبد، لكن هذه مصاحبة اطلاع وإحاطة، وهذه مصاحبة موالاة ونصر وحفظ.

فمع في لغة العرب للصحبة اللائقة لا تشعر بامتزاج ولا اختلاط ولا مجاورة ولا مجانبة، كقوله سبحانه: { اتقوا الله وكونوا مع الصادقين} وتقول: زوجتي معي، وهذه المعية لا تنافي علو الله علىٰ عرشه، فإن قربه ومعيته ليست كقرب الأجسام بعضها من بعض، ليس كمثله شيء؛ كما قال مالك: الاستواء معلوم والكيف مجهول. قال شيخ الإسلام: وهذا شأن جميع ما وصف الله به نفسه، فلو قال في قوله: ((إنني معكما أسمع وأرىٰ) كيف يسمع وكيف يرىٰ؟ لقلنا: السمع والرؤية معلوم والكيف مجهول، ولو قال كيف يتكلم؟ لقلنا الكلام معلوم والكيف مجهول.

وقوله: (ألم يعلم بأن الله يرىٰ): أي أما علم هذا الناهي عن الهدىٰ أن الله يراه ويسمع كلامه؟! وسيجازيه علىٰ فعله أتم الجزاء، وهذا وعيد.

وقوله: (الذي يراك): أي يبصرك وينظر إليك لا تخفىٰ عليه خافية، فتوكل عليه فإنه سيحفظك وينصرك ويعزك، وتضمن ذلك الوعد بالإثابة علىٰ ذلك أتم الثواب.

وقوله: (حين تقوم): أي يراك حين تقوم للصلاة وغيرها.

(وتقلبك في الساجدين): أي يرى تقلبك في الساجدين من قيام وقعود وركوع وسجود، ففيه فضيلة صلاة الجماعة.

واستفيد من هذه الآيات: إثبات صفة السمع والبصر وإثبات علمه المحيط.

وقوله: { وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون}. أي قل يا محمد لهؤلاء المنافقين: اعملوا ما شئتم واستمروا على باطلكم، ولا تحسبوا أن ذلك سيخفى عليه، وهذا وعيد شديد لمن خالف أوامره.

قوله: (فسيرى الله عملكم) ، أي سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا، وهذا وعيد للمخالف أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه وعلى الرسول وعلى المؤمنين، وهذا كائن لا محالة يوم القيامة، كما قال سبحانه: {يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية } وقال: {يوم تبلى السرائر}.

إثبات المكر والكيد ونحوهما

ذكر المُصَنِّف رحمه الله جملة من الآيات المشتملة على: إثبات صفتَي المكر والكيد لله عز وجل وهما من الصفات الاختيارية. لكن أهل العلم يذكرون أن هذه الصفات وما جاء بنحوها من باب المقابلة، فيمكر الله بمن يمكر به، ويكيد لمن أراد الكيد له سبحانه وتعالى.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ۝١٣﴾ [الرعد: ١٣]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠﴾ [النمل: ٥٠].

الشرح المهذب على العقيدة الواسطية

ومن ذلك الاستهزاء؛ فالله يستهزئ بمن يستهزئ به. فنلاحظ في هذه الآيات الواردة في هذا الباب أنها جاءت مقيَّدة وليست مطلَقة، أي لم يأتِ وصفُ الله بالمكر مطلقًا، بل وصف الله نفسه بهذا لمن يمكر به، وهكذا صفة الكيد والاستهزاء، وعلىٰ هذا لا يجوز اشتقاقُ اسم الماكر والكائد والمستهزئ.

قوله: (وهو شديد المحال): أي شديدة مماحلته في عقوبة من طغىٰ عليه، وعتىٰ وتمادىٰ في كفره، وعن علي رضي الله عنه: شديد المحال: أي شديد الأخذ.

والمِحال والمُماحلة المراد بهما: المماكرة والمغالبة.

وقوله: (ومكروا): أي كفار بني إسرائيل حين أرادوا قتل عيسىٰ وصلبه، والمكر فعل شيء يراد به ضده.

قوله: (ومكر الله): أي جازاهم علىٰ مكرهم، بأن رفع عيسىٰ إلىٰ السماء وألقىٰ شبهه علىٰ من أراد اغتياله حتىٰ قتل، كما روىٰ ذلك.

قوله: (والله خير الماكرين): أي أقوىٰ المجازين وأقدرهم علىٰ العقاب من حيث لا يشعر المعاقب.

قوله: (ومكروا): أي دبروا أمرهم علىٰ قتل صالح عليه السلام وأهله علىٰ وجه

الخفية حتىٰ من قومهم، خوفًا من أوليائه.

قوله: (ومكرنا مكرًا): أي بنصر نبينا صالح عليه السلام، وإهلاك قومه المكذبين. وقد حذرنا ربنا من الأمن من مكره سبحانه فقال: {أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون}. قال الحسن: من وسع الله عليه فلا يرىٰ أنه يمكر به فلا رأي له. وفي الحديث: ((إذا رأيت الله يعطي العبد علىٰ معاصيه ما يحب فاعلم أنما هو استدراج)) رواه أحمد وغيره، وهذا هو تفسير المكر في قول بعض السلف، يستدرجهم الله بالنعم إذا عصوه، ويملي لهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

والمكر إيصال الشيء إلىٰ الغير بطريق خفي، وكذلك الكيد والمخادعة.

ولكنه نوعان: قبيح وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه، وحسن وهو: إيصاله إلىٰ من يستحقه عقوبة له. فالأول مذموم، والثاني ممدوح، والرب تعالىٰ: إنما يفعل من ذلك ما يحمد عليه عدلا منه وحكمة، وهو تعالىٰ يأخذ الظالم والفاجر من حيث لا يحتسب. لا كما يفعل الظلمة بعباده، وأما السيئة فهي فعيلة مما يسوء. ولا ريب أن العقوبة تسوء صاحبها، فهي سيئة له حسنة من الحكم العدل.

قال ابن القيم: المكر ينقسم إلىٰ قسمين: محمود، ومذموم.

فإن حقيقته: إظهار أمر، وإخفاء خلافه؛ ليتوصل إلىٰ مراده.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾ [الطارق: ١٦]

فمن المحمود مكره -سبحانه- بأهل المكر مقابلة لهم بفعلهم، وجزاء لهم من جنس عملهم. انتهىٰ.

قوله: (إنهم يكيدون كيدًا): أي إن كفار قريش يكيدون كيدًا، وكيدهم هو ما دبروه في شأن رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم- من الإضرار به وإبطال أمره.

قوله: (وأكيد كيدًا): أي أجازيهم علىٰ كيدهم، والكيد استدراجهم كما في الآية: {سنستدرجهم من حيث لا يعلمون}.

قال ابن القيم: إن الله -سبحانه وتعالىٰ- يكيدهم كما يكيدون دينه ورسوله وعباده، وكيده سبحانه: استدراجهم من حيث لا يعلمون، والإملاء لهم حتىٰ يأخذهم علىٰ غرة، فإذا فعل ذلك أعداء الله بأوليائه ودينه كان كيد الله لهم حسنًا لا قبح فيه، فيعطيهم ويستدرجهم من حيث لا يعلمون. انتهىٰ. بتصرف.

فالكيد علىٰ نوعين:

١) كيد قبيح: وهو إيصال الكيد لمَن لا يستحقُّه.

٢) كيد حسن: وهو إيصال الكيد لمن يستحقه من باب العقوبة.

فالنوع الأول كيد مذموم وينزه الله تعالىٰ عنه.

والذي يوصف بالكيد هو المخلوق.

أما الله سبحانه فكيده حسن، ولا يكيد سبحانه إلا لمن يستحق الكيد.

وهذه التفاسير المتقدمة للمكر والكيد ونحو ذلك ليست من باب التأويل الذي ينكره أهل السنة والجماعة، بل من باب التفسير، فإن جميع الصحابة والتابعين يصفون الله -سبحانه وتعالىٰ- بأنه شديد القوة، وكذلك شديد المكر،

وشديد الأخذ، كما وصف الله -سبحانه- نفسه بذلك في غير آية من كتابه، كقوله: {إن أخذه أليم شديد}، وقوله: { إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين}، وقوله: { إن ربك لشديد العقاب}. فيمرون هذه الآيات علىٰ ظواهرها، ويعرفون معناها، ولكن لا يكيفونها ولا يشبهونها بصفات المخلوقين، وهذا مجمع عليه بين أهل السنة. انتهىٰ.

وقال ابن القيم في الصواعق: والله -سبحانه وتعالىٰ- لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع والاستهزاء مطلقًا، ولا ذلك داخل في أسمائه الحسنىٰ، فإن هذه الأفعال ليست ممدوحة مطلقًا، بل تمدح في موضع وتذم في موضع، فلا يجوز إطلاق أفعالها علىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- مطلقًا.

فلا يقال: إن الله يمكر ويخادع ويستهزئ، فكذلك بطريق الأولىٰ أن لا يشتق له منها أسماء يسمىٰ بها؛ بل إذا كان لم يأت في أسمائه الحسنىٰ المريد، ولا المتكلم، ولا الفاعل، ولا الصانع؛ لأن مسمياتها تنقسم إلىٰ ممدوح ومذموم، فكيف يكون منها: الماكر والمخادع والمستهزئ، وهذا لا يقوله مسلم

وَقَوْلُهُ: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ١٤٩﴾ [النساء: ١٤٩].

ولا عاقل، والمقصود أن الله لم يصف نفسه بالكيد، والمكر، والخداع إلا علىٰ وجه الجزاء لمن فعل ذلك لغير حق، وقد علم أن المجازاة حسنة من المخلوق فكيف من الخالق سبحانه وتعالىٰ.

إثبات صفة العفو:

وقوله: {إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفو عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا}، {وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم}.

في هذه الآيات إثبات وصف الله بالعفو والمغفرة والقدرة والرحمة.

والعفو اسمه تعالىٰ وصفته. ومعناه: المتجاوز عن خطيئات عباده، إذا تابوا وأنابوا، وهو الذي يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، وأكمل العفو ما كان عن مقدرة، ولذا قرن الله تعالىٰ عفوه بالقدرة فقال: {فإن الله كان عفوا قديرا}. ومن أسمائه تعالىٰ: القدير، والقدرة صفته وقدرته تعالىٰ شاملة لكل شيء، كما قال: {والله علىٰ كل شيء قدير}.

فقوله: (إن تبدوا خيرا): أي تظهروه.

قوله: (أو تخفوه): أي فتعملوا سرا، وهذا عام شامل لكل خير قولي أو فعلي، ظاهر أو باطن.

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢].

قوله: (أو تعفو عن سوء): أي تتجاوزوا عمن أساء إليكم في أنفسكم أو أموالكم أو غير ذلك. فالعفو هو التجاوز عن الذنب والصفح عنه، فعفا تأتي في اللغة لمعان: الأول: عفا عن الذنب، أي: صفح عنه، وعفا: أسقط حقه كما قال تعالىٰ: {إلا أن يعفون}: أي يسقطون حقوقهم، وعفا القوم: أي كثروا، ومنه {حتىٰ عفوا} أي كثروا، وعفا المنزل أي: انطمس.

قوله: (عفوًا): معناه ذو العفو، وهو ترك المؤاخذة علىٰ ارتكاب الذنب، وهو أبلغ من المغفرة، فإنها مشتقة من الغفر وهو الستر، والعفو إزالة الأثر، ومنه عفت الديار. وقوله: (قديرًا): أي قادرا علىٰ كل شيء، فمن جعل شيئا من الأعمال خارجًا عن قدرته ومشيئته فقد ألحد في أسمائه وآياته.

وقوله: (وليعفوا وليصفحوا): العفو: الستر و التجاوز، والصفح: الإعراض، مشتق من صفحة العنق، وهو أن يعرض عن عقاب المذنب وعتابه، وكأنه ولاه صفحة عنقه، وهو أبلغ من العفو؛ لأن الصفح لا لوم فيه ولا تثريب.

وهذه الآية نزلت في شأن أبي بكر الصديق حين حلف أن لا ينفق علىٰ مسطح ابن خالته لخوضه في أمر عائشة، وكان مسكينا بدريًا مهاجرًا، فلما تلاها النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- علىٰ أبي بكر قال: بلىٰ أحب أن يغفر الله لي، ورد علىٰ مسطح نفقته. وقوله: (والله غفور رحيم): غفور، أي كثير المغفرة.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

إثبات صفة العزة:

وقوله: (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين):

قوله: (ولله العزة): يعني الغلبة والقدرة، فمن يرد العزة فليطلبها بطاعة الله وطاعة رسوله، فالعزة والعلو إنما هما لأهل الإيمان، قال تعالىٰ: {وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين} فللعبد من العلو بحسب ما معه من الإيمان، قال تعالىٰ: {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين} فله من العزة بحسب ما معه من الإيمان وحقائقه، فإذا فاته حظه من العلو والعزة ففي مقابلة ما فاته من حقائق الإيمان علما وعملا، ظاهرا وباطنا، فالمؤمن عزيز عال مؤيد منصور مكفىٰ مدفوع عنه بالذات أين كان، ولو اجتمع عليه من أقطارها إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته، فمن نقص إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد بحسب ما نقص من إيمانه، انتهىٰ. من كلام شيخ الإسلام بتصرف.

وفي هذه الآية: إثبات العزة لله -سبحانه وتعالىٰ- الكاملة من جميع الوجوه، قال تعالىٰ: { وهو العزيز الحكيم}. والعزة في الأصل: القوة والغلبة والشدة.

تقول: عز يعز بكسر العين إذا صار عزيزًا.

وعز يعز بالفتح إذا اشتد وقوي. ومنه أرض عزاز، أي صلبة.

وعز يعز بالضم إذا غلب وقهر.

وَقَوْلُهُ عَنْ إِبْلِيسَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص: ٨٢].

فلاسمه العزيز -سبحانه- ثلاثة معان:

الأول: بمعنى الممتنع الجناب عن أن يصل إليه ضرر أو يلحقه نقص أو عيب.

الثاني: بمعنى القوة.

الثالث: بمعنى الغلبة والقهر.

قال ابن القيم: فاسمه العزيز يتضمن كمال قدرته وقوته وقهره، وهذه العزة مستلزمة للوحدانية، إذ الشركة تنقص كمال العزة. انتهى.

وقوله: {فبعزتك لأغوينهم أجمعين}: فيه دليل على الحلف بعزة الله سبحانه، وكذا غيرها من صفاته.

وفيه دليل على أن صفات الله غير مخلوقة، إذ الحلف بالمخلوق شرك.

وفيه إثبات العزة لله -سبحانه- ردًا على من قال: عزيز بلا عزة، كما قالوا: إنه عليم بلا علم.

والعزة المضافة إليه -سبحانه- تنقسم إلى قسمين:

قسم يضاف إليه -سبحانه- من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، وهي العزة المخلوقة التي يعز بها أنبياءه وعباده الصالحين.

والثاني: يضاف إليه من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، كما في هذه الآية، وكما في الحديث: «أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر».

وَقَوْلُهُ: ﴿تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَالِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝﴾ [الرحمن: ٧٨].

إثبات صفة البَرَكَة والتبَارُك

قوله: (تبارك): تعالت أسماؤك وتقدست، والجلال والعظمة صفتان لله تعالىٰ.

و(تبارك): أي تعاظم، وهو فعل ماض لا يتصرف، وهو خاص بالله -سبحانه- وتعالىٰ، والبركة لغة: النماء والزيادة، والتبريك: الدعاء بذلك.

قال ابن القيم: البركة نوعان:

أحدهما: بركة هي فعله، والفعل منها بارك، والمفعول منها مبارك، وهو ما جعل فيها ذلك، فكان مباركًا بجعله سبحانه.

والثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها تبارك، ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له سبحانه، فهو المتبارك ورسوله مبارك.

كما قال المسيح: {وجعلني مباركا أينما كنت}.

وأما صفته -سبحانه وتعالىٰ- (تبارك) فمختصة به -سبحانه-، كما أطلقها علىٰ نفسه. انتهىٰ، ملخصا من ((البدائع)). وقال في جلاء الأفهام: فتبارُكُه سبحانه صفة ذات له، وصفة فعل.

قوله: (فاعبده): أي أفرده بالعبادة، ولا تعبد معه غيره، وهذا أمر بإفراده -سبحانه- بالعبادة، ويتضمن النهي عن عبادة ما سواه، وعبادته -سبحانه وتعالىٰ- هي أعظم واجب، والإشراك به هو أعظم محرم علىٰ الإطلاق.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥].

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤].

والعبادة لغة: الذل، يقال طريق معبد إذا كان مذللًا قد وطئته الأقدام.

والعبادة شرعًا: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، كالصلاة، والصوم، والحج، ونحو ذلك.

وفيها دليل علىٰ أن العبادة تجب علىٰ كل مكلف، وأنه مهما بلغ فلن يصل إلىٰ حد تسقط عنه التكاليف الشرعية، ومن زعم ذلك فهو كافر بالله العظيم، فإن قوله: (فاعبده) خطاب لنبيه، وأمته تبع له، فإذا كان هذا في حقه –صلىٰ الله عليه وسلم– فغيره من باب أولىٰ وأحرىٰ، وللعبادة شروط لا تصح إلا بها:

الأول: الإخلاص، وهو أن يكون العمل لله سبحانه وتعالىٰ. الثاني: المتابعة، وهو أن يكون العمل علىٰ سنة رسول الله –صلىٰ الله عليه وسلم– كما قال تعالىٰ: {بلىٰ من أسلم وجهه لله وهو محسن}.

وللعبادة ثلاثة أركان وهي: المحبة، والخوف، والرجاء.

قوله: (هل تعلم له سميًا): أي هل تعلم له مساميًا ومشابهًا ومماثلًا من المخلوقين؟ وهذا استفهام بمعنىٰ النفي المعلوم بالعقل. أي: لا تعلم له مشابهًا؛ لأنه الرب، وغيره المربوب، ولأنه الغني من جميع الوجوه، وغيره الفقير، ولأنه الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه.

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [الإخلاص: ٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة: ٢٢].

الشرح المهذب على العقيدة الواسطية

وغيره ناقص من جميع الوجوه، فهذا برهان قاطع على أنه هو المستحق للعبادة، وأن عبادة غيره باطلة.

قوله: (ولم يكن له كفوا أحد): قد تقدم الكلام على ذلك.

وقوله: (فلا تجعلوا لله أندادا): أي أمثالًا ونظراء تعبدونهم كعبادته وتساوونهم به في المحبة والتعظيم، فلا ند له في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله ولا في عبادته، والند في اللغة: المثل، والنظير، والشبيه، يقال فلان ند فلان، أي شبيهه ونظيره.

واتخاذ الند ينقسم إلى قسمين: قسم من الشرك الأكبر، كاتخاذ ند يدعوه أو يرجوه أو يخافه أو يذبح له أو ينذر له ونحو ذلك.

كما في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: ((أن تجعل لله ندا وهو خلقك)) الحديث.

القسم الثاني: ما هو من نوع الشرك الأصغر كقول الرجل: ما شاء الله وشئت، ولولا الله وأنت. لم يكن كذا، والحلف بغير الله ونحو ذلك، كما في حديث ابن عباس أن رجلا قال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: ما شاء الله وشئت، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أجعلتني لله ندا؟ قل: ما شاء الله وحده)). أخرجه النسائي وابن ماجة.

قوله: (وأنتم تعلمون): أي: أنه ربكم وخالقكم وخالق كل شيء، فهو المستحق للعبادة، فكيف تجعلون له أندادًا وقد علمتم أنه لا ند له يشاركه في فعله؟!

ففي هذه الآية: الرد على جميع فرق الضلال. ففيها الرد على المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه، والذين يشبهون خلقه به، كعبدة الأوثان.

وفيها الرد على القدرية الذين يزعمون: أن العبد يخلق فعل نفسه استقلالا بدون مشيئة الله، فيكون شريكا لله -سبحانه وتعالى- وندا.

وفيها الرد على المعطلة الذين نفوا صفات الله فرارًا من التشبيه فشبهوه بالمعدومات والناقصات.

وفيها دليل على أن معرفة الله والإقرار به فطري ضروري، فطر الله عليه العباد، كما في الحديث: «ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه». وإن كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته حتى يحتاج إلى نظر تحصل به المعرفة، كما قال تعالى: { أفي الله شك}، أي أيشك في الله حتى يطلب إقامة الدليل على وجوده؟، وأي دليل أصح وأظهر من هذا المدلول، قال ابن القيم: وسمعت شيخ الإسلام يقول: كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء؟ وكان كثيرًا يتمثل بهذا البيت:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل.

إثبات المحبة:

قوله: (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا): أي نظراء وأمثالًا.

يساويهم بالله، بالعبادة والمحبة والتعظيم، وهؤلاء لا يساوونهم بالله في الرزق والتدبير، وإنما يسوونهم بالله في المحبة، فيعبدونهم ليقربوهم إلى الله زلفى.

فأخبر -سبحانه- أن من أحب من دون الله شيئًا كما يحب الله فهو ممن اتخذ من دون الله أندادًا، ففيها دليل على أنه -سبحانه- لا ند له، وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أندادا له تسمية مجردة ولفظًا فارغًا من المعنى، كما قال تعالى: {وجعلوا لله شركاء} الآية، والمذكور في الآية: هو المحبة الشركية المستلزمة للخوف والتعظيم والإجلال والإيثار على مراد النفس، فمحبة الله -سبحانه- هي أصل دين الإسلام وبكمالها يكمل، فهي أعظم الفروض، فصرفها لغير الله شرك أكبر، كما قال سبحانه: {وما هم بخارجين من النار}.

وقوله: (والذين آمنوا أشد حبًّا لله): أي من أصحاب الأنداد لأندادهم، فمحبة المؤمنين لربهم لا تساويها محبة، والمعنى: والذين آمنوا أشد حبًّا لله من محبة أهل الأنداد لله؛ لأن محبة المؤمنين لله خالصة ومحبة المشركين لله مشتركة، قد أخذت أندادهم قسطًا من محبتهم، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة. ففي هذه الآيات أن من أشرك مع الله غيره في المحبة فقد جعله شريكًا لله،

واتخذ ندًا لله، وأن ذلك هو الشرك الأكبر. فالمحبة تنقسم إلىٰ أقسام:

الأول: محبة الله سبحانه، ولا تكفي وحدها بالنجاة من النار والفوز بالجنة، فإن المشركين يحبون الله سبحانه.

الثاني: محبة ما يحبه الله، وهذه المحبة هي التي تدخل في الإسلام وتخرج من الكفر، وأحب الناس إلىٰ الله أقومهم بهذه المحبة.

الثالث: المحبة في الله ولله، وهي فرض كمحبة أولياء الله وبغض أعداء الله، وهي من مكملات محبة الله ومن لوازمها، فالمحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب في محبوبه ومكروهه وولايته وعداوته، ومن المعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة فلا بد أن يبغض أعداء الله ويحب أولياءه.

الرابع: المحبة مع الله المحبة الشركية، وهي المستلزمة للخوف والتعظيم والإجلال فهذه لا تصلح إلا لله سبحانه، ومتىٰ أحب العبد بها غير الله فقد أشرك الشرك الأكبر.

الخامس: المحبة الطبيعية وهي ميل الإنسان إلىٰ ما يلائم طبعه، كمحبة المال والولد ونحو ذلك، فهذه المحبة لا تذم إلا إن أشغلت وألهت عن طاعة الله كما قال سبحانه: {يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون}.

﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١﴾ [سورة الإسراء: ١١١].

الشرح المهذب على العقيدة الواسطية

قوله: (وقل الحمد لله): أل للاستغراق والشمول، أي الحمد كله لله.

فهو المستحق للحمد لما اتصف به من صفات الكمال، والحمد هو الثناء عليه -سبحانه- بما هو أهله، مرة بعد أخرىٰ.وأما المجد فهو ذكر صفات الجلال والعظمة، وأما الشكر: فهو فعل ينبئ عن تعظيم المنعم، بسبب كونه منعمًا، وشرعا: هو صرف العبد جميع ما أنعم الله لما خلق لأجله.

والفرق بين الحمد والشكر: أن الشكر يكون باللسان والجنان والأركان.

أما الحمد فلا يكون إلا باللسان والجنان.

وأيضا فإن الشكر لا يكون إلا في مقابلة نعمة، وأما الحمد فهو يكون في مقابلة نعمة وفي غير مقابلة نعمة.

قال ابن تيمية: والحمد نوعان: حمد علىٰ إحسانه إلىٰ عباده وهو من الشكر، وحمد لما يستحقه من نعوت كماله، وإنما يستحق ذلك من هو متصف بصفات الكمال، وهي أمور وجودية، فإن الأمور العدمية لا حمد فيها ولا خير ولا كمال.

قوله: (الذي لم يتخذ ولدا): هذا رد علىٰ اليهود والنصارىٰ والمشركين، فإن النصارىٰ يقولون المسيح ابن الله، واليهود يقولون عزير ابن الله، والمشركون يقولون الملائكة بنات الله.

قوله: (ولم يكن له شريك في الملك): هذا رد على المجوس والمشركين والقدرية.

قوله: (ولم يكن له ولي من الذل): أي ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له ولي أو وزير أو مشير؛ لأنه -سبحانه- عزيز لا يفتقر إلى ولي يحميه ويمنعه من الذل.

فنفى الولاية على هذا المعنى، لأنه غني عنها، ولم ينف الولاية على وجه المحبة والكرامة لمن شاء من عباده، فلم ينف الولي نفيًا عامًا مطلقًا، بل نفى أن يكون له ولي من الذل، وأثبت في موضع آخر أن يكون له أولياء بقوله: {ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون } فهذه موالاة رحمة وإحسان، والموالاة المنفية موالاة حاجة وذل، كما أشار إلى هذا المعنى ابن القيم.

وقوله: (وكبره تكبيرا): أي عظمه عما يقوله الظالمون المخالفون للرسل.

ففي هذه الآية أمر نبيه بحمده؛ لأنه المستحق أن يحمد لما اتصف به من صفات الكمال ، وفيها تنزيهه -سبحانه- عن الولد، وذلك لكمال صمديته -سبحانه- وغناه وتعبد كل شيء له، فاتخاذ الولد ينافي ذلك كما قال سبحانه:{ قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض } الآية.

وفيها تنزيهه -سبحانه- أن يكون له شريك في الملك المتضمن تفرده بالربوبية والألوهية، وتوحده بصفات الكمال التي لا يوصف بها غيره.

وَقَوْلُهُ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [التغابن: ١].

الشرح المهذب على العقيدة الواسطية

وهذه الآية آية عظيمة، وتسمى آية العز. قال ابن كثير: قال قتادة: ذكر لنا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يعلم أهله هذه الآية الصغير والكبير.

قوله: (يسبح لله): أي ينزهه عما لا يليق بجلاله وعظمته، فالتسبيح يقتضي التنزيه لله -سبحانه- من كل سوء وعيب وإثبات صفات الكمال لله سبحانه.

وهذا التسبيح قيل: بلسان الحال، وقيل: بلسان المقال وهو الصحيح.

والله -سبحانه- قادر على خلق الإدراك في الجمادات وإنطاقها، كما قال -سبحانه- عن الجلود: { أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء}.

والأصل في الكلام: الحقيقة، وقد سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- تسبيح الحصى، وورد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي))، وكما في الحديث: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما خطب على المنبر حن الجذع الذي كان يخطب عليه سابقًا، وقال تعالى: (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) الآية.

قوله: (ما في السماوات وما في الأرض): أي جميع ما في السماوات والأرض يسبح لله وحده، وينزهه عما لا يليق بجلاله وعظمته، وقدم السماوات على الأرض لأنها مقدمة بالرتبة والفضل والشرف، أفاده ابن القيم في ((البدائع)).

وَقَوْلُهُ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ ﴾ [الفرقان: ٢].

قوله: (له الملك): أي هو المالك وحده لجميع المخلوقات النافذ فيها أمره، يتصرف فيها كيف يشاء لا معقب لحكمه ولا راد لأمره.

قوله: (يحيي ويميت وهو علىٰ كل شيء قدير): ففي هذه الآية دليل علىٰ وجود التسبيح من جميع المخلوقات، وأنه تسبيح حقيقي، وأنه -سبحانه- قادر، علىٰ خلق الإدراك للجمادات، وقادر علىٰ إنطاقها، وفيها إثبات جميع صفات الكمال لله -سبحانه- ونفي كل نقص وعيب، لأن التسبيح يقتضي ذلك.

وقوله: (تبارك): من البركة وهو لغة: النماء والزيادة، وتبارك فعل مختص بالله لم ينطق له بمضارع.

قوله: (الذي نزل الفرقان): أي القرآن سمي بذلك لأنه يفرق بين الحق والباطل، ومنه الفاروق، وفيه دليل علىٰ أن القرآن منزل من عند الله.

وفيه دليل علىٰ علوه -سبحانه- علىٰ خلقه؛ لأن الإنزال والتنزيل لا يكون إلا من أعلىٰ إلىٰ أسفل، وأفادت هذه الآية: فضل هذا الكتاب علىٰ الكتب الأخرىٰ.

قوله: (علىٰ عبده): أي علىٰ عبده ورسوله محمد -صلىٰ الله عليه وسلم-، وهذا صفة مدح وثناء؛ لأنه أضافه إلىٰ عبوديته ووصفه بها في أشرف مقاماته:

....

مقام الإرسال، كقوله سبحانه: {وأنه لما قام عبد الله يدعوه} ومقام الإسراء كقوله سبحانه: {سبحان الذي أسرىٰ بعبده ليلا من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ } ومقام التحدي كقوله سبحانه: {وإن كنتم في ريب مما نزلنا علىٰ عبدنا} الآية، وهذه الإضافة إضافة تشريف وتعظيم.

وتقدم أن المضاف إليه –سبحانه– ينقسم إلىٰ قسمين: إضافة أعيان وإضافة معان، فإضافة المعاني إليه –سبحانه وتعالىٰ– من باب إضافة الصفة إلىٰ الموصوف، كإضافة السمع والبصر والعلم والقدرة ونحو ذلك إليه –سبحانه–.

الثاني: إضافة الأعيان إليه سبحانه، فإضافتها إليه –سبحانه– من باب إضافة المخلوق إلىٰ خالقه، كبيت الله وناقة الله، والحجر يمين الله وعبد الله ورسول الله ونحو ذلك. وفي هذه الآية فضل نبينا –صلىٰ الله عليه وسلم– حيث أضافه إليه ووصفه بالعبودية التي هي من أشرف مقامات العبد.

قوله: (ليكون للعالمين نذيرا): أي منذرا، والإنذار: هو الإعلام بأسباب المخافة، فكل إنذار إعلام ولا ينعكس، قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية: والإنذار المذكور في الآية إنذار عام، فإن الإنذار ينقسم إلىٰ قسمين: إنذار عام وإنذار خاص. والخاص كقوله سبحانه: {إنما أنت منذر من يخشاها} وقوله: {إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب} الآية.

....

فهذا الإنذار الخاص هو التام النافع الذي ينتفع به المنذر، والإنذار: هو الإعلام بالخوف، فعلم المخوف فآمن وأطاع. انتهى. ونذارته -صلى الله عليه وسلم- تنقسم إلى قسمين: عامة وخاصة، فالعامة كما في هذه الآية، والخاصة كقوله سبحانه: {وأنذر عشيرتك الأقربين} الآية.

قوله: (ليكون للعالمين نذيرا): اللام في قوله: (ليكون) لام العلة، ودخول لام التعليل في شرعه أكثر من أن يعد، ففيه دليل على تعليل أفعال الله، وأنه لا يفعل شيئا إلا لعلة وحكمة. قال ابن تيمية: هذا قول السلف وجمهور المسلمين، وجمهور العقلاء، وقالت طائفة كجهم وأتباعه: إنه لم يخلق شيئا لشيء، ووافقه أبو الحسن الأشعري ومن اتبعه من الفقهاء أتباع الأئمة. انتهى.

قوله: (للعالمين): المراد بالعالمين هنا: الجن والإنس، ففيه دليل على عموم رسالته -صلى الله عليه وسلم- وبعثته إلى الجن والإنس. وفيه دليل على أن الجن مكلفون ويتضمن الدلالة على أنهم يثابون على الحسنات ويجازون على السيئات. وفيه دليل على أن من بلغه القرآن فقد قامت عليه الحجة، لقوله - سبحانه- وتعالى: (لأنذركم به ومن بلغ) الآية، ففيه الرد على من زعم أن كلام الله ورسوله لا يفيد اليقين، فلو كان الأمر كما زعم هؤلاء المبتدعة لم تقم بالقرآن حجة على المكلفين.وأفادت: الحكمة في إرسال الرسل وإنزال الكتب.

وَقَوْلُهُ: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: ٩١-٩٢] .

الشرح المهذب على العقيدة الواسطية

قوله: (الذي له ملك السماوات والأرض): أي له التصرف فيهما، والجميع خلقه وعبيده.

قوله: (ولم يتخذ ولدا): أي لكمال غناه وقيامه بنفسه وحاجة كل شيء إليه، وافتقاره وقيام كل شيء به سبحانه وتعالىٰ.

قوله: (وخلق كل شيء): أي أوجد وأنشأ وأبدع، وتأتي خلق بمعنىٰ: قدر، وتأتي بمعنىٰ: كذب، كما قال سبحانه: {وتخلقون إفكًا}

وقوله: (وخلق كل شيء): أي خلق كل شيء مخلوق، فيدخل في ذلك أفعال العبد، فهي خلق لله وفعل للعبد، ولا يدخل في ذلك أسماء الله وصفاته؛ لأن الأسماء والصفات تابعة للذات يحتذىٰ فيها حذوها. وعموم (كل) في كل مقام بحسبه كما تقدم بيانه.

قوله: (فقدره تقديرًا): أي قدر رزقه وأجله وحياته وموته وما يصلح له.

ففيه دليل علىٰ الإيمان بالقدر، ودليل علىٰ ما سبق علم الله -سبحانه وتعالىٰ- بالأشياء، وكتابتها.

وقوله: (ما اتخذ الله من ولد): أي لأنه منزه عن المثل والشبيه والنظير.

....

والولد يشبه والده فلم يتخذ ولدا لكمال صمديته وغناه وملكه وتعبد كل شيء له، فاتخاذ الولد ينافي ذلك

قوله: (وما كان معه من إله): أي ليس معه -سبحانه- شريك في الألوهية، لتفرده -سبحانه- بالألوهية والربوبية وتوحده بصفات الكمال.

قوله: (إذا لذهب كل إله بما خلق): أي لو كان معه إله لذهب كل إله بما خلق، أي: انفرد به ومنع غيره من الاستيلاء عليه، فلو قدر ذلك لما كان ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق، {ما ترىٰ في خلق الرحمن من تفاوت}.

قوله: (ولعلا بعضهم علىٰ بعض): أي لو كان معه إله لعلا بعضهم علىٰ بعض مغالبة، كفعل ملوك الدنيا، فكل واحد منهم يطلب قهر الآخر.

قوله: (سبحان الله): أي تنزيها لله -سبحانه-، والتسبيح: التنزيه عن كل نقص وعيب.

قوله: (عما يصفون): أي تنزيها لله -سبحانه- عما يصفه به المخالفون للرسل عليهم السلام.

قوله: (عالم الغيب والشهادة): أي يعلم ما غاب عن العباد وما شاهدوه، والغيب ينقسم إلىٰ قسمين: غيب مطلق، وغيب مقيد. فالمطلق: لا يعلمه إلا الله، وهو ما غاب عن جميع المخلوقين الذين قال فيه: {فلا يظهر علىٰ غيبه أحدا}.

....

والغيب المقيد: ما علمه بعض المخلوقات من الجن والإنس، فهو غيب عمن غاب عنه وليس هو غيبًا عمن شهده، والناس قد يغيب عن هذا ما يشهده هذا فيكون غيبًا مقيدًا، أي غيبًا عمن غاب عنه من المخلوقين لا عمن شهده، وليس هو غيبًا مطلقًا عن المخلوقين قاطبة. انتهىٰ. من كلام شيخ الإسلام بتصرف.

قوله: (فتعالىٰ الله عما يشركون): قوله: (فتعالىٰ) أي علا وتنزه وتقدس عما لا يليق بجلاله، فله -سبحانه- العلو الكامل المطلق من جميع الوجوه، علو القهر، أي: إنه علا علىٰ كل شيء بمعنىٰ أنه قاهر له، قادر عليه متصرف فيه.

وله -سبحانه وتعالىٰ- علو القدر، فتعالىٰ -سبحانه- وتنزه عن المثيل والنظير، وتنزه عن النقائص والعيوب، كما قال: (سبحانه عما يشركون) وفي دعاء الاستفتاح: ((وتعالىٰ جدك)).

وله -سبحانه- علو الذات، أي أنه عال علىٰ الجميع فوق عرشه، وإثبات علوه -سبحانه- علىٰ ما سواه وقدرته عليه وقهره يقتضي ربوبيته له وخلقه له، وذلك يستلزم ثبوت الكمال، وعلوا عن الأمثال يقتضي أنه لا مثل له في صفات الكمال فاسمه العلي الأعلىٰ يتضمن اتصافه بجميع صفات الكمال، وتنزيهه عما ينافيها من صفات النقص، وعن أن يكون له مثل، وأنه لا إله إلا هو ولا رب سواه، انتهىٰ. ملخصا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

الشرح المهذب على العقيدة الواسطية

قوله: (فلا تضربوا لله الأمثال): يعني: الأشباه فتشبهونه بخلقه، وتجعلون له شريكًا فإنه -سبحانه- لا مثل له ولا ند له لا في ذاته ولا في أسمائه وصفاته ولا في أفعاله، وضرب المثل هو تشبيه حال بحال، فلا يمثل -سبحانه وتعالىٰ- بخلقه، ولا يشبه بهم -سبحانه وتعالىٰ-، فإنه -سبحانه- لا مثل له.

وقوله: (إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون): أي يعلم أنه لا مثل له ولا ند، وأنه الإله الحق لا إله غيره، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره من الأوثان والأنداد وتشبهونها به. ...

قوله: (قل): أي: قل يا محمد، ففيه دليل علىٰ أن القرآن كلام الله ليس كلام محمد ولا غيره، وإنما محمد عليه الصلاة والسلام مبلغ لكلام الله.

قوله: (إنما): أداة حصر تثبت المذكور وتنفي ما سواه.

قوله: (حرم): أي جعله حرامًا ومَنع منه، والتحريم ينقسم إلىٰ قسمين: شرعي كما في هذه الآية، وكوني قدري كما في قوله تعالىٰ: { وحرام علىٰ قرية أهلكناها أنهم إلينا لا يرجعون}.

....

قوله: (ربي): الرب هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور، وإذا أفرد أو عرف لم يطلق إلا علىٰ الله -سبحانه- وتعالىٰ، أما إذا أضيف فيطلق علىٰ غيره، كما يقال رب الدار، ورب الدابة ونحو ذلك.

قوله: (الفواحش): هي جمع فاحشة، وهو ما استعظم من الذنوب والمعاصي كالزنا واللواط وقتل النفس ونحو ذلك، سماه الله فاحشة لتناهي قبحه.

قال ابن القيم: فيه دليل علىٰ أن الأفعال التي توصف بأنها حسنة وقبيحة، كما أنها نافعة وضارة ولكن لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب إلا بالأمر والنهي.

قال تعالىٰ: {وما كنا معذبين حتىٰ نبعث رسولا} وقال: {ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرىٰ بظلم وأهلها غافلون}، وعلىٰ أحد القولين: هو أن المعنىٰ لم يهلكهم بظلم قبل إرسال الرسل، فتكون الآية دالة علىٰ الأصلين، أن أفعالهم وشركهم قبيح قبل البعثة، وأنه لا يعاقبهم إلا بعد الإرسال.

قوله: (ما ظهر منها وما بطن): أي ما أعلن منها وما أسر.

قوله: (والإثم): أي الذنب تعميم بعد تخصيص، وقيل المراد بالإثم: الخمر.

قوله: (والبغي): هو التعدي علىٰ الناس.

قال ابن القيم: وأما الإثم والعدوان فهما قرينان، قال تعالىٰ: {ولا تعاونوا علىٰ الإثم والعدوان}، فكل منهما إذا انفرد تضمن الآخر.

....

فكل إثم عدوان، إذ فعل ما نهىٰ الله عنه وترك ما أمر الله به فهو عدوان علىٰ أمره ونهيه، وكل عدوان إثم، فإنه يأثم به صاحبه، ولكن عند اقترانهما فهما شيئان بحسب متعلقهما ووصفهما، فالإثم: ما كان محرم الجنس، كالكذب والزنا وشرب الخمر، والعدوان: ما كان محرم القدر والزيادة، فالعدوان تعدي ما أبيح منه إلىٰ القدر المحرم.

كالاعتداء في أخذ الحق ممن هو عليه، إما أن يتعدىٰ علىٰ ماله أو بدنه أو عرضه

وهذا نوعان: عدوان في حق الله، وعدوان في حق العبد.

فالعدوان في حق الله كما إذا تعدىٰ ما أبيح له من الوطء الحلال في الأزواج والمملوكات إلىٰ ما حرم عليه من سواهما..اهـ. بتصرف.

قوله: (وأن تشركوا بالله): أي تصرفوا شيئًا من حق الله –سبحانه– إلىٰ غيره من الأوثان والأنداد، والشرك بالله هو أعظم الذنوب علىٰ الإطلاق.

والشرك ينقسم إلىٰ قسمين: أكبر وأصغر، فحد الشرك الأكبر هو تسوية غير الله بالله فيما هو خاص بالله. وأما الشرك الأصغر فحده ما ورد في النصوص تسميته شركًا، ولم يصل إلىٰ حد الشرك الأكبر.

وينقسم الشرك الأكبر إلىٰ قسمين: شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته، وقسم يتعلق بمعاملته.

....

فالنوع الأول ينقسم إلىٰ قسمين: شرك تعطيل، وشرك تمثيل.

فشرك التعطيل ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

- تعطيل المخلوق عن خالقه، وذلك مثل قول القائلين: إن الطبيعة هي التي أوجدت الأشياء، وإنها تتصرف بطبيعتها.

- وتعطيل الصانع من كماله المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته.

- وتعطيل حق معاملته. وذلك بترك عبادته أو بعضها، أو عبادة غيره معه.

والقسم الثاني: شرك التمثيل ينقسم إلىٰ قسمين:

- تشبيه المخلوق بالخالق، كشرك النصارىٰ وعبدة الأوثان، شبهوا أوثانهم بالله وعبدوها معه.

- وتشبيه الخالق بالمخلوق، كأن تقول: يد الله كأيدينا. وعين الله كأعيننا ونحو ذلك، وقد تقدمت الإشارة إلىٰ ذلك.

النوع الثاني: شرك يتعلق بمعاملته -سبحانه- وهذا ينقسم إلىٰ أقسام:

الأول: شرك الدعوىٰ، كقوله تعالىٰ: {فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين}.

الثاني: شرك المحبة كقوله سبحانه: {ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله } الآية.

الثالث: شرك الطاعة، كقوله سبحانه: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله } الآية.

الرابع: شرك الإرادة والقصد، كقوله سبحانه: {من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون }{ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون }.

قوله: (ما لم ينزل به سلطانا): أي برهان وحجة. بل أنزل البرهان والحجة في تحريمه، وأنه أعظم الذنوب على الإطلاق، والسلطان والبرهان والحجة والدليل ألفاظ مترادفة. وسلطان يأتي بمعنى: الحجة، كما في هذه الآية، ويأتي بمعنى: الملك كقوله: {هلك عني سلطانيه} ويأتي بمعنى: التسلط والسيطرة كقوله: {إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا} الآية.

قوله: (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون): أي وأن تقولوا على الله من الافتراء والكذب ما لا علم لكم به، فختم هذه المحرمات بالقول على الله بلا علم؛ لأنه أصلها وأعظمها، وأصل كل بدعة وحدث في الدين.

ففيه تحريم القول على الله بلا علم، في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه وقدره ووصفه بضد ما وصف به نفسه. اهـ.

وفي هذه الآية رتب المحرمات أربع مراتب:

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] فِي ستةِ مَوَاضِعَ.

وبدأ بأسهلها، وهي الفواحش.

ثم ثنىٰ بما هو أشد تحريمًا، وهو الإثم والظلم.

ثم ثلث بما هو أعظم تحريمًا منهما، وهو الشرك بالله.

ثم ربع بما هو أعظم تحريمًا من ذلك كله وهو القول علىٰ الله بلا علم، في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه. انتهىٰ. من كلام ابن القيم.

إثبات استواء الله على عرشه

قوله: (الرحمن علىٰ العرش استوىٰ): في ستة مواضع، أي إنه نص في معناه لا يحتمل التأويل، وصريح في أنه بذاته استوىٰ استواء يليق بجلاله وعظمته.

قوله: (إن ربكم الله): أي هو المعبود وحده لا شريك له وعبادة غيره باطلة.

قوله: (الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام): خلق، أي أنشأ وأوجد، والخلق هو: اختراع الشيء علىٰ غير مثال سبق، ففيه إضافة الفعل والخلق إليه -سبحانه- علىٰ جهة الحقيقة؛ لأنها الأصل، وقد رد ابن القيم رحمه الله علىٰ من زعم أن خلقه وفعله مجاز من وجوه عديدة.

قوله: (في ستة أيام): أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، وفيه اجتمع الخلق كلهم وهذه الأيام كأيامنا، هذا هو المتبادر إلىٰ الأذهان وهو ظاهر الأدلة.

....

قوله: (ثم استوىٰ علىٰ العرش) أي استوىٰ استواء يليق بجلاله وعظمته، لا تكيفه ولا تمثله ولا يعلم كيف هو إلا هو، كما قال مالك: الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، فقول مالك: الاستواء معلوم، أي في لغة العرب، وقوله: والكيف مجهول، أي كيفية استوائه لا يعلمها إلا هو، والإيمان به أي بالاستواء واجب لتكاثر الأدلة في إثباته.

والسؤال عنه، أي عن الكيفية بدعة إذ لا يعلم كيفية استوائه إلا هو، فإن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، فكما نعلم أن لله ذاتا لا تشبه الذوات، فكذلك يجب أن نثبت له صفات لا تشبه الصفات، فإثباتنا للصفات إثبات وجود لا إثبات تكييف وتمثيل، إذ العلم بالصفة فرع عن العلم بالموصوف، ولا يعلم كيف هو إلا هو، وكذلك يقال في بقية الصفات، كصفة المجيء والنزول والإتيان والوجه واليد ونحو ذلك، فهذا الجواب الوارد عن مالك رحمه الله كاف شاف في سائر الصفات.

قال الذهبي: فانظر إليهم كيف أثبتوا الاستواء لله وأخبروا أنه معلوم لا يحتاج لفظه إلىٰ تفسير، ونفوا عنه الكيفية، أما معنىٰ الاستواء في اللغة فلها أربعة معان تأتي بمعنىٰ: علا، وبمعنىٰ ارتفع، وبمعنىٰ صعد، واستقر. فهذه الأربعة هي التي تدور عليها تفاسير السلف رحمهم الله.

....

قال البخاري في صحيحه: قال مجاهد: استوىٰ علىٰ العرش، وقال إسحاق بن راهويه سمعت غير واحد من المفسرين يقولون: (الرحمن علىٰ العرش استوىٰ)، أي ارتفع، وقال محمد بن جرير في قوله: (الرحمن علىٰ العرش استوىٰ)، أي علا وارتفع، وشواهده في أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم معروفة.

وأما تفسير: (استوىٰ) باستولىٰ أو ملك أو قهر فهو تفسير باطل مردود من وجوه عديدة. منها: أن هذا التفسير لم يفسره به أحد من السلف لا من الصحابة ولا من التابعين، بل أول من عرف عنه هذا التفسير بعض الجهمية والمعتزلة.

ثانيا: أن الاستواء في لغة العرب الذين نزل القرآن بلغتهم نوعان: مطلق ومقيد، فالمطلق ما لم يقيد بحرف، كقوله تعالىٰ: { ولما بلغ أشده واستوىٰ} وهذه معناها تم وكمل، وأما المقيد فثلاثة أنواع: أحدها مقيد بإلىٰ كقوله: {ثم استوىٰ إلىٰ السماء} وهذا بمعنىٰ العلو والارتفاع بإجماع السلف. الثاني:مقيد بعلىٰ كقوله: {لتستووا علىٰ ظهوره} وقوله: {واستوت علىٰ الجودي} وهذا أيضا معناه العلو والارتفاع والاعتدال بإجماع أهل اللغة، الثالث: المقرون بواو المعية، كقولهم: استوىٰ الماء والخشبة، وهذا بمعنىٰ ساواها، فهذه معاني الاستواء المعقولة في كلامهم ليس فيها معنىٰ استولىٰ ألبتة.

....

ولا نقله أحد من أئمة اللغة، وإنما قاله متأخرو النحاة ممن سلك طريق الجهمية والمعتزلة، مستدلين ببيت للأخطل النصراني وهو قوله:

قد استوىٰ بشر علىٰ العراق   من غير سيف أو دم مهراق

وهذا البيت ليس من شعر العرب، وأهل اللغة لما سمعوه أنكروه غاية الإنكار، ولم يجعلوه من لغة العرب.

ثالثا: أن معنىٰ هذه الكلمة مشهور، كما قال مالك وربيعة وغيرهم.

رابعا: أنه لو لم يكن معنىٰ الاستواء في الآية معلوما لم يحتج أن يقول: والكيف مجهول؛ لأن نفي العلم بالكيف لا ينفي إلا ما قد علم أصله.

خامسا: أن الاستواء خاص بالعرش، وأما الاستيلاء فهو عام علىٰ سائر المخلوقات، فلو كان معنىٰ الاستواء الاستيلاء لجاز أن يقول استوىٰ علىٰ الماء والهواء والأرض.

سادسا: أنه أخبر بخلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوىٰ علىٰ العرش، وأخبر أن عرشه علىٰ الماء قبل خلقهما، والاستواء متأخر عن خلقهن، والله مستول علىٰ العرش قبل خلق السماوات وبعده.

فعلم أن الاستواء علىٰ العرش الخاص به غير الاستيلاء العام عليه وعلىٰ غيره.

....

سابعا: أنه لم يثبت في اللغة أن معنىٰ (استوىٰ) استولىٰ، إذ الذين قالوا ذلك عمدتهم البيت المذكور، ولم يثبت نقل صحيح أنه عربي، وغير واحد من أئمة اللغة أنكروه وقالوا بيت مصنوع لا يعرف في اللغة، فكيف تعارض أدلة الكتاب والسنة ببيت شعر لنصراني، ومع ذلك لم يثبت، قال الشيخ تقي الدين رحمه الله في (لاميته) المشهورة:

قبحا لمن نبذ الكتاب وراءه وإذا استدل يقول قال الأخطل

وقال ابن القيم رحمه الله في كتابه النونية:

ودليلهم في ذاك بيت قاله فيما يقال الأخطل النصراني

إلىٰ غير ذلك من الوجوه التي ذكرها أهل العلم في رد وإبطال هذا التفسير، وقد أنهاها ابن القيم رحمه الله إلىٰ اثنين وأربعين وجهًا.

قوله: (العرش) هو لغة: عبارة عن السرير الذي للملك، كما قال تعالىٰ عن بلقيس: {ولها عرش عظيم} فالعرش سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقبة علىٰ العالم وهو سقف المخلوقات.

قال البيهقي رحمه الله: اتفقت أقاويل أهل التفسير علىٰ أن العرش هو السرير، وأنه جسم خلقه الله وأمر ملائكته بحمله، وتعبدهم بتعظيمه والطواف به، كما خلق بيتا في الأرض وأمر بني آدم بالطواف به واستقباله.

....

قوله: (يغشي): أي يغطي (الليل النهار) فيذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا، أي سريعًا لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا وعكسه.

قوله: (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) أي الجميع تحت قهره وتصريفه ومشيئته.

قوله: (ألا له الخلق والأمر): أي هو خالق كل شيء، وهذا عام فيشمل أفعال العباد، وله الأمر، أي: الملك والتصرف، فلا راد لأمره ولا معقب لحكمه.

والأمر ينقسم إلىٰ قسمين: أمر شرعي ديني كقوله: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان} وأمر كوني قدري كقوله: {وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها} الآية. فتضمنت هذه الآية إثبات أنواع التوحيد الثلاثة.

وأفادت الرد علىٰ الفلاسفة القائلين بقدم هذه المخلوقات، وأفادت عموم خلقه لهذه المخلوقات، فيشمل ذواتها وصفاتها، وأفادت الاستدلال بهذه المخلوقات علىٰ وجود الخالق، وأفادت إثبات أسمائه وصفاته وأنه المستحق للعبادة، وأفادت إثبات صفة الخلق، وأفادت إثبات الأفعال الاختيارية اللازمة والمتعدية، وغير ذلك من الفوائد.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ [النساء: ١٥٨].

إثبات العلو:

قوله: (يا عيسىٰ إني متوفيك): أي قابضك من الأرض ورافعك إلي من غير موت، من قولهم: توفيت الشيء واستوفيته إذا قبضته وأخذته تامًا، انتهىٰ.

والتوفي الاستيفاء، وهو يصلح لتوفي النوم ولتوفي الموت الذي هو فراق الروح البدن، ولم يذكر القبض الذي هو قبض الروح والبدن جميعًا، والصواب الذي عليه المحققون، أن عيسىٰ عليه السلام لم يمت بحيث فارقت روحه بدنه، بل هو حي مع كونه توفي.

قوله: (ورافعك إلي): أي رفعه الله -سبحانه- إلىٰ السماء وهو حي، كما قال: {وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته}.

والضمير في قوله: (قبل موته) عائد إلىٰ عيسىٰ، وذلك حين ينزل إلىٰ الأرض قبل يوم القيامة، ونزول عيسىٰ ثابت وهو أحد أشراط الساعة الكبار.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم-: ((والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلًا مقسطًا فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتىٰ لا يقبله أحد)).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

الشرح المهذب على العقيدة الواسطية

وقوله: (بل رفعه الله إليه): في هذه الآية -كالآية السابقة- دليل على أن الله رفع عيسى عليه السلام إلى السماء وقبضه إليه.

وفيها دليل على علوه -سبحانه- على خلقه.

وفي هذه الآية والتي قبلها الرد على اليهود الذين تنقصوه وجعلوه ابن زنا.

والرد على النصارى الذين غلوا فيه ورفعوه عن مقام النبوة إلى مقام الربوبية، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرًا.

قوله: (إليه): أي إلى الله سبحانه وتعالى.

(يصعد): أي يرتفع والصعود: الارتفاع، وأما أصعد يصعد بالضم فمعناه: أبعد في الهروب، ومنه (إذ تصعدون).

وقوله: (الكلم الطيب): يعني الذكر والتلاوة والدعاء.

قوله: (والعمل الصالح يرفعه): قال مجاهد: العمل الصالح يرفع الكلم الطيب.

وقيل الرفع من صفة الله سبحانه وتعالى، أي العمل الصالح يرفعه الله. قال سفيان بن عيينة: العمل الصالح هو الخالص، يعني أن الإخلاص يسبب قبول العمل، كما قال سبحانه: {فليعمل عملا صالحا} الآية. وقال ابن القيم: العمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيد بالسنة. وفي هذه الآية أيضًا دليل على علو الله -سبحانه- وتعالى؛ لأن الصعود والرفع لا يكون إلا من أسفل إلى أعلى.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ٣٧ ﴾. [غافر: ٣٦-٣٧].

قوله: (وقال فرعون): هو ملك القبط في الديار المصرية، وفرعون لقب لكل من ملك مصر.

قوله: (يا هامان): أي قال فرعون لوزيره هامان.

(ابن لي صرحا): أي قصرًا عاليًا منيفًا.

قوله: (لعلي أبلغ الأسباب): أسباب: مفرده سبب، والسبب يأتي بمعنىٰ الحبل كقوله: {فليمدد بسبب إلىٰ السماء} والطريق، ومنه قوله: {فأتبع سببا} والباب كقوله: {أسباب السماوات}.

قوله: (أسباب السماوات): أي طرقها وأبوابها وما يؤدي إليها، وكل ما أدىٰ إلىٰ شيء فهو سبب إليه كالرشا ونحوه.

قوله: (فأطلع): بالنصب علىٰ جواب الشرط أي أصعد، والاطلاع هو الصعود.

قوله: (إلىٰ إله موسىٰ وإني لأظنه كاذبا): أي في دعواه أن له إلها غيري.

وأنه أرسله، ففي هذه الآية دليل علىٰ أن موسىٰ عليه السلام كان يقول: ربه في السماء وفرعون يظنه كاذبًا، فمن نفىٰ العلو من الجهمية فهو فرعوني.

وَقَوْلُهُ: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦-١٧].

ومن أثبته فهو موسوي محمدي، ففيها دليل على إثبات علو الله -سبحانه- على خلقه، وأن موسى عليه السلام أخبر أن ربه في السماء.

وعلو الله -سبحانه- على خلقه مما تواطأ على إثباته العقل والنقل وفطر الله عليه الخلق، وأدلة إثبات العلو كثيرة جدا تزيد على ألف دليل.

قيل لعبد الله بن المبارك كيف نعرف ربنا؟ فقال: بأنه فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه، وقال الأوزاعي: كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله تعالى بائن من خلقه، ونؤمن بما وردت به السنة، وهذا كثير في كلام الصحابة والتابعين، والأئمة أثبتوا ما أثبته الله في كتابه على لسان رسوله على الحقيقة فيما يليق بجلاله وعظمته، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين ولم يمثلوا أو يعطلوا.

قوله: (أأمنتم): من الأمن وهو ضد الخوف.

قوله: (من في السماء): أي أأمنتم عقاب من في السماء، وهو الله إن عصيتموه، وهذا عند أهل السنة على أحد وجهين. الأول: أن تكون (في) بمعنى على.

قوله: (أن يخسف بكم): أي كما خسف بقارون.

قوله: (فإذا هي تمور): أي تضطرب وتتحرك.

قوله: (أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا): أي ريح شديدة .

....

سميت بذلك لأنها ترمي الحصباء.

قوله: (فستعلمون كيف نذير): أي إذا رأيتم ذلك علمتم كيف إنذاري حين لا ينفعكم العلم والمعرفة بذلك. وفي هذه الآية إشارة إلىٰ التحذير من الأمن من مكر الله، وفي هذه الآية دلالة واضحة علىٰ علو الله -سبحانه- علىٰ خلقه.

وقد تواترت في ذلك الأدلة واتفقت علىٰ إثبات العلو جميع الرسل.

وينقسم العلو إلىٰ ثلاثة أقسام: علو القدر، علو القهر، علو الذات، فله العلو الكامل من جميع الوجوه. وكذلك الفوقية فإنها ثابتة لله سبحانه وتعالىٰ.

قال الله تعالىٰ: {يخافون ربهم من فوقهم}، وقوله: {وهو القاهر فوق عباده} وهي من صفات الذات. وفوق وعلا بمعنىٰ واحد.

وفوقيته -سبحانه- ثابتة كعلوه، تواطأت علىٰ إثباتها أدلة العقل والنقل والفطر التي لم تتغير. وأقسام الفوقية ثلاثة: فوقية القدر. فوقية القهر. فوقية الذات، خلافا للجهمية والمعتزلة الذين ينكرون فوقية الذات، كما أنكروا علو الذات.

وحقيقة الفوقية: علو ذات الشيء علىٰ غيره، فادعىٰ الجهمي أنه مجاز في فوقية الرتبة والقهر، كما يقال الذهب فوق الفضة، وهذا وإن كان ثابتا للرب لكن إنكار حقيقة فوقيته -سبحانه- وحملها علىٰ المجاز باطل من وجوه عديدة:

أحدها: أن الأصل الحقيقة والمجاز خلاف الأصل.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الحديد: ٤].

الثاني: أن الظاهر خلاف ذلك.

الثالث: أن الفطر والعقول والشرائع وجميع كتب الله المنزلة على خلاف ذلك، وساق ابن القيم وجوها عديدة في إبطال ما ذكروه والرد عليهم في (الصواعق).

إثبات معية الله لخلقه:

قوله: (هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش) فيه إثبات الأفعال الاختيارية للرب سبحانه، وهي تنقسم إلى قسمين: لازمة كالاستواء والمجيء والنزول، ومتعدية كالخلق والرزق والإحياء والإماتة ونحو ذلك، فهو -سبحانه- موصوف بالنوعين وقد جمعهما في هذه الآية.

وفيها بيان أن الخلق غير المخلوق؛ لأن نفس خلقه السماوات والأرض غير السماوات والأرض، وفيها دليل على مباينة الرب -سبحانه- لخلقه، فإنه لم يخلقه في ذاته، بل خلقهم خارجا عن ذاته، ثم بان عنهم باستوائه على عرشه، وهو يعلم ما هم عليه فيراهم وينفذه بصره فيهم ويحيط بهم علمًا وقدرة وإرادة وسمعًا وبصرًا، وهذا معنى كونه معهم أينما كانوا.

قوله: (وهو معكم): أي معكم بعلمه، وقد حكى غير واحد الإجماع على أن

....

المراد بهذه: معية العلم ولا شك في إرادة ذلك، فعلمه بهم وبصره نافذ فيهم.

فهو -سبحانه- مطلع علىٰ خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء، فإن (مع) في لغة العرب لا تقتضي أن يكون أحد الشيئين مختلطا بالآخر. كقوله سبحانه: { اتقوا الله وكونوا مع الصادقين} .

وجاءت المعية في القرآن عامة وخاصة.

فالعامة كما في هذه الآية، فافتتح الكلام بالعلم وختمه بالعلم، فدل علىٰ أنه معهم بالعلم، ولهذا قال ابن عباس والضحاك وسفيان وأحمد والثوري: وهو معهم بعلمه. أما المعية الخاصة فكقوله: { إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون} فهو مع المتقين دون الظالمين، فلو كان معنىٰ المعية أنه في كل مكان بذاته لتناقض الخبر الخاص والعام، بل المعنىٰ أنه مع هؤلاء بنصره وحفظه وتأييده دون أولئك.

وقد أخبر في هذه الآية وغيرها: أنه -سبحانه- مع خلقه مع كونه مستويا علىٰ عرشه، وقرن بين الأمرين كما قال سبحانه: {هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوىٰ علىٰ العرش} الآية، فأخبر أنه استوىٰ علىٰ عرشه وأنه مع خلقه، يبصر أعمالهم من فوق عرشه، فعلوه -سبحانه- لا يناقض معيته، ومعيته لا تبطل علوه، فكلاهما حق.

وَقَوْلُهُ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧ ﴾ [المجادلة: ٧] .

قوله: (ما يكون): أي يوجد فكان تامة.

قوله: (من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم): النجوى إسرار ثلاثة، فالنجوى: الإسرار.

قوله (رابعهم): لما كان -سبحانه وتعالى- ليس من جنس خلقه جعل نفسه رابع الثلاثة وسادس الخمسة، إذ هو غيرهم بالحقيقة، والعرب تقول: رابع أربعة وخامس خمسة لما يكون فيه المضاف إليه من جنس المضاف، فإذا كان المضاف إليه من غير جنسه قالوا رابع ثلاثة وسادس خمسة ونحو ذلك.

أفاده ابن القيم في (الصواعق).

قوله: (إلا هو معهم): أي مطلع عليهم يسمع كلامهم ويعلم سرهم ونجواهم، ورسله مع ذلك تكتب ما يتناجون به مع علمه وسمعه، كما قال سبحانه: {أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون} .

قوله: (ثم ينبئهم): أي يخبرهم يوم القيامة بجميع أعمالهم، قال تعالى: {ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا} .

﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠] .

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾ [طه: ٤٦] .

الشرح المهذب على العقيدة الواسطية

قوله: (إن الله بكل شيء عليم): قال الإمام أحمد: افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم.

قوله: (إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا): كان هذا القول عام الهجرة، لما هم المشركون بقتل النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- أو حبسه أو نفيه فخرج منهم هاربًا صحبه صاحبه أبو بكر، فلجأ إلىٰ غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم ثم يسيرون نحو المدينة، فخاف أبو بكر علىٰ النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-، فجعل النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- يسكنه ويثبته ويقول: ((ما ظنك باثنين الله ثالثهما)) كما روىٰ الإمام أحمد في مسنده عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي -صلىٰ الله عليه وسلم- ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلىٰ قدميه لأبصرنا تحت قدميه، فقال رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم-: ((ما ظنك باثنين الله ثالثهما)) أخرجاه في الصحيحين، ولذلك قال العلماء: من أنكر صحبة أبي بكر فهو كافر، لإنكاره كلام الله وليس ذلك لغير أبي بكر.

قوله: (لا تحزن): الحزن هو ضد السرور. وقوله:(إن الله معنا): أي بنصره وحفظه وكلاءته، ومن كان الله معه فلا خوف عليه.

قوله: (إنني معكما أسمع وأرىٰ) قد تقدم الكلام علىٰ هذه الآية الكريمة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾[النحل: ١٢٨] .

﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ [الأنفال: ٤٦] .

﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقوله: (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون): أي معهم بنصره وحفظه وتأييده، وهذه معية خاصة، وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم كما تقدم في قوله: (وهو معكم أين ما كنتم) فهي مقتضية لتخويف العباد منه.

قوله: (واصبروا إن الله مع الصابرين): في هذه الآية الأمر بالصبر وهو دليل على وجوبه، وهو شامل لأنواع الصبر الثلاثة، فإن حذف المعمول يؤذن بالعموم.

وقوله: (إن الله مع الصابرين): أي بحفظه ونصره وتأييده، وهذه معية خاصة.

قوله: (فئة): أي جماعة، وهي جمع لا واحد له من لفظه.

قوله: (بإذن الله): أي بقضائه وإرادته ومشيئته.

أفادت هذه الآية -كالآية السابقة- الحث على الصبر، وأنه أعظم سبب في تحصيل المقصود، وفيه أيضا المعية الخاصة للصابرين، وأن الله ضمن لهم النصر، وفيها أن النصر من عند الله -سبحانه- وتعالى، لا عن كثرة عدد ولا عدة، وإنما تلك أسباب، وقد أمر الله -سبحانه وتعالى- بتعاطيها واتخاذها كما قال سبحانه: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة}.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٨٧]. ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢]. ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١١٦]. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

إثبات الكلام لله عز وجل:

قوله: (ومن أصدق من الله قيلا): أي لا أحد أصدق من الله قولًا ولا خبرًا.

قوله: (ابن مريم): أضافه إلىٰ أمه لأنه لا أب له، فهو من أم بلا أب، ففي هذه الآيات إثبات القول لله -سبحانه وتعالىٰ- وأنه يقول متىٰ شاء إذا شاء.

وأن الكلام والقول المضاف إليه -سبحانه- قديم النوع حادث الأحاد.

وفيه دليل علىٰ أنه -سبحانه- يتكلم بحرف وصوت كما يليق بجلاله سبحانه.

وفيه الرد علىٰ من زعم أن كلام الله هو المعنىٰ النفسي، إذ المعنىٰ المجرد لا يسمع.

قوله: (صدقًا): أي صدقًا في الإخبار، وعدلًا في الطلب.

فكل ما أخبر به -سبحانه- فهو حق لا مرية فيه ولا شك، فكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهىٰ عنه فباطل؛ لأنه لا ينهىٰ إلا عن مفسدة، والمراد بالكلمة: أمره ونهيه ووعده ووعيده، وكلمات الله نوعان: كونية ودينية.

فكلمات الله الكونية: هي التي استعاذ النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- بها في قوله: ((أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر)).

وكقوله: {وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا}.

النوع الثاني: الكلمات الدينية: وهي القرآن وشرع الله الذي بعث به رسوله، وهي أمره ونهيه، انتهى. من كلام الشيخ تقي الدين بن تيمية.

قوله: (لا مبدل لكلماته): أي ليس أحد يعقب حكمه -سبحانه- لا في الدنيا ولا في الآخرة.

قوله: (وهو السميع العليم): الذي أحاط سمعه بسائر الأصوات، وأحاط علمه بالظواهر والخفيات.

قوله: (وكلم الله موسى تكليما): خصص الله نبيه موسى عليه السلام بهذه الصفة تشريفًا له، ولذا يقال لموسى عليه السلام الكليم، وهذا دليل على أن التكليم الذي حصل لموسى عليه السلام أخص من مطلق الوحي.

ثم أكده بالمصدر الحقيقي رفعًا لما توهمه المعطلة من أنه إلهام أو إشارة أو تعبير للمعنى النفسي بشيء غير التكليم فأكده بالمصدر المفيد تحقق النسبة ورفع توهم المجاز، قال الفراء: إن الكلام إذا أكد بالمصدر ارتفع المجاز وثبتت الحقيقة، ويروى أن رجلا قال لأبي عمرو بن العلاء أريد أن تقرأ: { وكلم الله موسى تكليما }، بنصب لفظ الجلالة فقال له: هب أني قرأت ذلك فما تقول في قوله: { وكلمه ربه } فبهت المعتزلي.

﴿ مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] .

قوله: (منهم من كلم الله): أي: كلمه الله، كموسىٰ عليه السلام ومحمد وكذلك آدم، كما ورد به الحديث المروي في صحيح ابن حبان عن أبي ذر رضي الله عنه.

قوله: (لميقاتنا): أي للوقت الذي ضربنا أن نكلمه فيه.

قوله: (وكلمه ربه): أي كلمه -سبحانه وتعالىٰ- بكلام حقيقي يليق بجلاله وعظمته، وكلمه بلا واسطة، فهذه الآيات أفادت إثبات صفة الكلام لله.

وأنه تكلم ويتكلم -سبحانه- وتعالىٰ، والأدلة الدالة علىٰ أنه يتكلم أكثر من أن تحصر، وفيها الرد علىٰ من زعم أن كلامه -سبحانه- معنىٰ واحد قائم بالنفس لا يتصور أن يسمع، وفيها دليل علىٰ أن كلامه -سبحانه وتعالىٰ- حقيقة لا مجاز، لأنه أكده بالمصدر، فقال: {وكلم الله موسىٰ تكليما}، أكده بالمصدر لنفي المجاز؛ لأن العرب لا تؤكد بالمصدر إلا إذا أرادت الحقيقة.

وفيها دليل علىٰ أن الله لم يزل متكلما إذا شاء ومتىٰ شاء وكيف شاء.

وفيها دليل علىٰ أن نوع الكلام قديم، وإن لم يكن الصوت المعين قديمًا، فكلام الله -سبحانه وتعالىٰ- قديم النوع حادث الآحاد.

وكلامه -سبحانه وتعالىٰ- نوعان: كوني قدري به توجد الأشياء.

كما قال سبحانه: { إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون} .

الثاني: كلام ديني شرعي، ومنه كتبه المنزلة على رسله، فهو الذي تكلم بها حقًا وليست مخلوقة، بل هي من جملة صفاته.

وصفاته -سبحانه- غير مخلوقة، كما تقدم في حديث خولة. وبه استدل الإمام أحمد وغيره على أن كلام الله غير مخلوق؛ لأنه أمر بالاستعاذة بكلمات الله، والاستعاذة بالمخلوق شرك، فدل على أن كلام الله غير مخلوق.

وتكليمه -سبحانه وتعالى- لعباده نوعان:

الأول: بلا واسطة، كما كلم موسى بن عمران، وكما كلم الأبوين، وكذا نادى نبينا ليلة الإسراء.

الثاني: تكليمه – سبحانه – لعباده بواسطة، إما بالوحي الخاص للأنبياء، وإما بإرساله إليهم رسولا يكلمهم من أمره بما شاء.

وفي الآيات المتقدمة أيضا دليل على أن الكلام المضاف إليه -سبحانه وتعالى- من صفاته الذاتية من حيث تعلقها بذاته واتصافه بها، ومن صفاته الفعلية حيث كانت متعلقة بقدرته ومشيئته.

قوله: (وناديناه): أي نادينا موسى وكلمناه بقول: { يا موسى إني أنا الله }.

وقوله: {الطور}: هو اسم جبل بين مصر ومدين، وقوله: {الأيمن}: أي الذي يلي يمين موسى حين أقبل من مدين، قوله: {وقربناه نجيا}: أي مناجيًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الشعراء: ١٠]، ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]. وَقَوْلُه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص: ٦٥].

الشرح المهذب على العقيدة الواسطية

وقوله: {وإذ نادىٰ ربك موسىٰ أن ائت القوم الظالمين}.

وقوله: {وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة}: أي نادىٰ آدم وحواء.

وقوله: {ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين}:

قال بعض السلف: ما من فعلة وإن صغرت إلا وينشر لها ديوانان لم وكيف، أي لم فعلت وكيف فعلت؟ فالأول سؤال عن الإخلاص، والثاني سؤال عن المتابعة. فإن الله لا يقبل عملا إلا بهما، فطريق التخلص من السؤال الأول: بتجريد الإخلاص، وطريق التخلص من السؤال الثاني: بتحقيق المتابعة. انتهىٰ.

وقال بعض السلف: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون وماذا أجبتم المرسلين؟ فيسأل عن المعبود وعن العبادة. وأفادت هذه الآيات إثبات صفة الكلام لله، وأنه نادىٰ وناجىٰ، وقد جاء النداء في تسع آيات من القرآن، وكذلك النجاء جاء في عدة آيات، والنداء هو الصوت الرفيع، وضده النجاء. ففيها إثبات أن الله يتكلم بحرف وصوت يليق بجلاله، إذ لا يعقل النداء والنجاء إلا ما كان حرفًا وصوتًا، وقد استفاضت الآثار عن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- والصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة السنة بذلك.

وفي هذه الآيات أيضًا الرد علىٰ من زعم أن كلام الله هو المعنىٰ النفسي، إذ المعنىٰ المجرد لا يسمع. وقد رد الشيخ ابن تيمية علىٰ من زعم ذلك من تسعين وجها، في كتابه التسعينية.

قال بعض العلماء: من زعم أن كلام الله هو المعنىٰ النفسي فقد زعم أن الله لم يرسل رسولًا ولم ينزل كتابًا.

وقال: من زعم أن كلام الله هو المعنىٰ النفسي فقد زعم أن الله أخرس.

وقال ابن حجر في شرح البخاري: ومن نفىٰ الصوت فقد زعم أن الله لم يسمع أحدًا من ملائكته ولا رسله كلامًا بل ألهمهم إياه إلهامًا.

وفيها الرد علىٰ من زعم أن كلام الله هو معنىٰ قائم بذاته لا يتجزأ ولا يتبعض، فإن الأمر لو كان كما زعموا لكان موسىٰ عليه السلام سمع جميع كلام الله، وفيها الرد علىٰ من زعم أن كلام الله مخلوق، فإن صفات الله داخلة في مسمىٰ اسمه، فليس الله اسما لذات لا سمع لها ولا بصر ولا حياة ولا كلام لها، فكلامه وعلمه وحياته وقدرته داخلة في مسمىٰ اسمه، فهو -سبحانه- بصفاته الخالق.

وما سواه المخلوق، وفي إثبات الكلام إثبات الرسالة، فإذا انتفت صفة الكلام انتفت صفة الرسالة، إذ حقيقة الرسالة تبليغ كلام المرسل.

ومن ها هنا قال السلف: من أنكر كون الله متكلمًا فقد أنكر رسالة الرسل كلهم.

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾

[التوبة: ٦].

والرب -سبحانه وتعالىٰ- يخلق بقوله وبكلامه كما قال: { إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون}، فإذا انتفت حقيقة الكلام عنه فقد انتفىٰ الخلق.

قوله: (وإن أحد): أحدٌ مرفوع بفعل يفسره استجارك.

وقوله: (فأجره): أي أمِّنْهُ، وقوله: (حتىٰ يسمع كلام الله): أي حتىٰ يسمع القرآن مبلغًا إليه من قارئه، كما قال أبو بكر الصديق حين قرأ علىٰ قريش: { ألم * غلبت الروم }: فقالوا: هذا كلامك أو كلام صاحبك، فقال: ليس بكلامي ولا بكلام صاحبي ولكنه كلام الله. وفي سنن أبي داود أن رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم- كان يعرض نفسه علىٰ الناس بالموسم فيقول: ((ألا رجل يحملني إلىٰ قومه لأبلغ كلام ربي فإن قريشا منعوني أن أبلغ كلام ربي)). فبين أن ما يبلغه ويتلوه هو كلام الله لا كلامه.

وفي الآية دليل علىٰ أنه إذا استأمن مشرك ليسمع القرآن وجب تأمينه ليعلم دين الله وتنتشر الدعوة، ومنها أن رسول الله كان يعطي الأمان لمن جاءه مسترشدا أو في رسالة كما جاء في الحديبية جماعة من قريش. وكذلك من قدم من دار الحرب إلىٰ دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو طلب من الإمام أو نائبه- أعطي أمانًا ما دام مترددًا في دار الإسلام حتىٰ

يرجع إلىٰ مأمنه ووطنه.

وفيها دليل علىٰ إثبات صفة الكلام لله وأنه يتكلم وأن القرآن كلامه.

وفيها دليل علىٰ أن الكلام إنما ينسب إلىٰ من قاله ابتداء لا إلىٰ من قاله مبلغًا مؤديًا، فإن القارئ يبلغ كلام الله، وكلامه -سبحانه- صفة من صفاته غير مخلوق، وأما صوت القارئ وكذا المداد والورق فهي مخلوقة، لهذه الآية ولحديث: ((زينوا القرآن بأصواتكم))، فبين أن الأصوات التي يقرأ بها القرآن أصواتنا، والقرآن كلام الله، فالقرآن كلام الباري، والصوت صوت القارئ.

وفي هذه الآية دليل علىٰ أن القرآن الذي هو سور وآيات وحروف وكلمات هو عين كلامه -سبحانه- حقا لا تأليف ملك ولا بشر.

وأن حروفه ومعانيه عين كلامه -سبحانه- الذي تكلم به -سبحانه- حقًا، وبلغه جبريل إلىٰ محمد -صلىٰ الله عليه وسلم-، وبلغه محمد -صلىٰ الله عليه وسلم- فللرسولين منه مجرد التبليغ والأداء لا الوضع والإنشاء.

فإضافته إلىٰ الرسول بقوله: {إنه لقول رسول كريم } إضافة تبليغ وأداء لا إضافة وضع وإنشاء، كما يقوله أهل الزيغ والافتراء.

وفيه الرد علىٰ من زعم أن هذا الموجود بين أيدينا هو عبارة عن كلام الله أو حكاية له، فإنه -سبحانه- أخبر أن الذي يسمع كلام الله.

....

وعندهم أن الذي يسمع ليس كلام الله علىٰ الحقيقة، وإنما هو مخلوق حكي به كلام الله علىٰ أحد قولهم، وعبارة عبر بها عن كلام الله علىٰ القول الآخر.

وهي مخلوقة علىٰ القولين، فالمقروء، والمكتوب، والمسموع، والمحفوظ ليس كلام الله، وإنما هو عبارة عبر بها عنه، كما يعبر عن الذي لا ينطق ولا يتكلم من أخرس أو عاجز، تعالىٰ الله عن قولهم علوا كبيرا.

وفيه دليل علىٰ أن القرآن كلام الله وأنه يسمع وأنه غير مخلوق.

وفيها الرد علىٰ من زعم أنه مخلوق أو أنه كلام بشر أو ملك أو غير ذلك.

وفيها أن من زعم أنه كلام غير الله فقد كفر أو زعم أنه مخلوق.

قال الشيخ ابن تيمية: ولم يقل أحد من السلف إنه مخلوق أو أنه قديم، بل الآثار متواترة عن السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان أنهم يقولون: القرآن كلام الله، وأول من عرف عنه أنه قال مخلوق الجعد بن درهم، وصاحبه الجهم بن صفوان، وأول من عرف عنه أنه قال: هو قديم عبد الله بن سعيد بن كلاب، أما السلف فلم يقل أحد منهم بواحد من القولين، ولم يقل أحد من السلف: إن القرآن عبارة عن كلام الله وحكاية له، ولا قال منهم أحد إن لفظي بالقرآن قديم أو مخلوق، بل كانوا يقولون بما دل عليه الكتاب والسنة من أن هذا القرآن كلام الله، والناس يقرءونه بأصواتهم ويكتبونه بمدادهم وما بين اللوحين كلام الله.

﴿وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ [البقرة: ٧٥].

وكلام الله غير مخلوق، والمداد الذي يكتب به القرآن مخلوق، والصوت الذي يقرأ به هو صوت العبد، والعبد وصوته وحركاته وسائر صفاته مخلوقة، فالقرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الباري، والصوت صوت القارئ، انتهى.

قوله: (فريق): أي طائفة: (منهم): أي أحبارهم (يسمعون كلام الله): أي التوراة.

قوله: (ثم يحرفونه): أي يغيرونه ويتأولونه على غير تأويله.

(من بعد ما عقلوه): أي فهموه (وهم يعلمون): أي أنهم مفترون، وإذ كان هذا حال علمائهم فكيف بجهالهم.

وفي هذه الآية التأييس من إيمان اليهود الذين شاهد آباؤهم ما شاهدوا، ثم قست قلوبهم ولم ينفعهم ما شاهدوه، وفيها ذم للمحرفين للكلم عن مواضعه، وأن التحريف من صفات اليهود.

وأفادت هذه الآية كغيرها إثبات صفة الكلام لله -سبحانه وتعالى-، والرد على من زعم أن الله لا يتكلم أو أن كلامه مخلوق.

وفيها دليل على أن الكلام إنما ينسب إلى من قاله مبتدءا لا إلى من قاله مبلغا مؤديا. فإن قوله: (يسمعون كلام الله): أي من قارئه ومبلغه.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ [الفتح: ١٥] .

﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [سورة الكهف: ٢٧].

قوله: (يريدون أن يبدلوا كلام الله): أي مواعيده بغنائم خيبر، أهل الحديبية خاصة، لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب والمتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعًا ولا قدرًا، ولهذا قال: {يريدون أن يبدلوا كلام الله} وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية، اختاره ابن جرير.

قوله: (قل لن تتبعونا): أي في خيبر، وهذا خبر بمعنىٰ النهي.

قوله: (كذلكم قال الله من قبل): أي من قبل عودنا من قبل انصرافنا من مكة إلىٰ المدينة أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة دون غيرهم.

أفادت هذه الآية -كغيرها- إثبات صفة الكلام، وإثبات القول لله -سبحانه وتعالىٰ-، وأنه قال ويقول متىٰ شاء إذا شاء.

قوله: (واتل): أي اتبع، والتلاوة هي الاتباع، يقال اتل أثر فلان وتلوت أثره وقفوته وقصصته بمعنىٰ تبعت خلفه، ويسمىٰ تالي الكلام تاليًا؛ لأنه يتبع بعض الحروف بعضًا لا يخرجها جملة واحدة، وحقيقة التلاوة في هذا الموضع وغيره هي التلاوة المطلقة التامة، وهي تلاوة اللفظ والمعنىٰ. انتهىٰ. ملخصا من كلام ابن القيم.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل: ٧٦].

قوله: (ما أوحي إليك): الوحي: لغة: الإعلام في خفاء. وفي الاصطلاح: إعلام الله أنبياءه بالشيء، إما بكتاب أو رسالة ملك أو منام أو إلهام.

قوله: (من كتاب ربك): أي القرآن بدليل قوله: { وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن } - إلى قوله - { إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى} الآية والمسموع واحد، والكتاب في الأصل جنس، ثم غلب على القرآن من بين الكتب. انتهى، (الكوكب المنير) ملخصًا.

قوله: (لا مبدل لكلماته): أي لا تغير ولا تبدل، كما قال سبحانه: { إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} في هذه الآية -كغيرها- دليل على أن الكتاب هو القرآن، فإن الله -سبحانه- سمى نفس مجموع اللفظ والمعنى قرآنًا وكتابًا وكلامًا، كما تقدم في قوله: {وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن} الآية فبين أن الذي سمعوه هو القرآن، وهو الكتاب، وقال تعالى: {تلك آيات الكتاب وقرآن مبين}.

وفي الآية المتقدمة دليل على أن القرآن منزل من عند الله، وأنه كلامه، وفيها الحث على تلاوته، وأنه -سبحانه- ضمن حفظه من التغيير والتبديل.

قوله: (إن هذا القرآن): مصدر قرأ، أي: جمع لجمعه السور، أو ما في الكتب السابقة. قوله (يقص): أي يبين (على بني إسرائيل) وهم حملة التوراة.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾[الأنعام: ٩٢].

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١].

(أكثر الذي هم فيه مختلفون) وذلك كاختلافهم في أمر عيسىٰ وتباينهم فيه، فجاء القرآن بالقول العدل الحق أنه عبد من عباد الله ونبي من أنبيائه.

وفي الآية دليل علىٰ عظمة هذا الكتاب وهيمنته علىٰ الكتب السابقة، وتوضيحه لما وقع فيها من اشتباه، وإضافة القصص والتوضيح إليه وتضمن وجوب الرجوع إليه واتباعه.

قوله: (وهذا كتاب): أي القرآن (مبارك): أي كثير المنافع والخير.

قوله: (لرأيته خاشعًا): أي متذللًا (متصدعًا): أي متشققًا، فإذا كان القرآن لو أنزل علىٰ جبل لخشع وتصدع من خوف الله فكيف يليق بكم أيها الناس أن لا تلين قلوبكم وتخشع من خوف الله، وقد فهمتم عن الله أمره ونهيه وتدبرتم كتابه، وفي الآية دليل علىٰ عظمة القرآن، وأنه لو أنزل علىٰ جبل لخشع وتصدع من خشية الله.

وفيها دليل علىٰ أنه -سبحانه- خلق في الجمادات إدراكًا بحيث تخشع وتسبح، وهذا حقيقة كما دلت علىٰ ذلك الأدلة، ولا يعلم كيفية ذلك إلا هو سبحانه.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝١٠٢ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾ [النحل: ١٠١-١٠٣]

وفيها حث علىٰ الخوف من الله والخشوع عند سماع كلامه، وأنه ينبغي أن يقرأ بتدبر وخشوع وإقبال قلب وأنه ينبغي الرقة عند سماع كلام الله والبكاء وتلاوته بحزن.

قوله: (وإذا بدلنا آية مكان آية): أي نسخناها وأنزلنا غيرها لمصلحة العباد.

قوله: (والله أعلم بما ينزل): أي هو -سبحانه وتعالىٰ- أعلم بما هو أصلح لخلقه فيما يغير وينسخ من أحكامه، وفي الآية دليل علىٰ وقوع النسخ في القرآن، وأنه لحكمة ومصلحة يعلمها سبحانه، فهو أعلم بمصلحة عباده، وفيها دليل علىٰ إحاطة علمه -سبحانه- بكل معلوم.

قوله: (قالوا): أي الكفار (إنما أنت مفتر): أي كذاب (بل أكثرهم لا يعلمون): أي لا يعلمون الحكمة في ذلك.

قوله: (قل نزله): أي القرآن، والتنزيل والإنزال هو مجيء الشيء من أعلىٰ إلىٰ أسفل، (روح القدس): أي جبريل عليه السلام، فجبريل سمعه من الله.

والنبي -صلىٰ الله عليه وسلم- سمعه من جبريل، وهو الذي نزل بالقرآن علىٰ محمد -صلىٰ الله عليه وسلم- كما نص علىٰ ذلك أحمد وغيره من الأئمة، وجبريل هو الروح الأمين المذكور في قوله سبحانه: {نزل به الروح الأمين علىٰ قلبك} الآية.

ولم يقل أحد من السلف: إن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- سمعه من الله، وإنما قال ذلك بعض المتأخرين، والآية ترد عليه.

قال ابن حجر في شرح (البخاري): والمنقول عن السلف اتفاقهم أن القرآن كلام الله غير مخلوق، تلقاه جبريل عن الله، وبلغه جبريل إلىٰ محمد -صلىٰ الله عليه وسلم-، وبلغه محمد إلىٰ أمته. انتهىٰ.

ففي هذه الآيات دليل علىٰ أن القرآن منزل من عند الله، وأنه كلامه، بدأ منه وظهر لا من غيره، وأنه الذي تكلم به لا غيره، وأما إضافته إلىٰ الرسول في قوله: {إنه لقول رسول كريم} فإضافة تبليغ لا إضافة إنشاء، والرسالة تبليغ كلام المرسل، ولو لم يكن للمرسل كلام يبلغه الرسول لم يكن رسولا.

ولهذا قال غير واحد من السلف: من أنكر أن يكون الله متكلمًا فقد أنكر رسالة رسله، فإن حقيقة رسالتهم: تبليغ كلام المرسل.

وفيها دليل على علو الله على خلقه، والتنزيل والإنزال المذكور في القرآن ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

إنزال مطلق كقوله: {وأنزلنا الحديد}.

الثاني: إنزال من السماء كقوله: {وأنزلنا من السماء ماء طهورا}.

الثالث: إنزال منه -سبحانه- كقوله: { قل نزله روح القدس من ربك} .

فأخبر أن القرآن منزل منه، والمطر منزل من السماء، والحديد منزل نزولًا مطلقًا، ففرق -سبحانه- بين النزول منه والنزول من السماء، وحكم المجرور بمن في هذا الباب حكم المضاف.

والمضاف ينقسم إلى قسمين: إضافة أعيان، وإضافة معان، فإضافة الأعيان إليه -سبحانه- من باب إضافة المخلوق إلى خالقه.

كبيت الله وناقة الله ونحو ذلك، أما إضافة المعاني إلى الله -سبحانه وتعالى- فهي من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، كسمع الله وبصره وعلمه وقدرته، فهذا يمتنع أن يكون المضاف مخلوقًا، بل هو صفة قائمة به.

وهكذا حكم المجرور بمن، فإضافة القرآن إليه -سبحانه- من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، لا من باب إضافة المخلوق إلى خالقه خلافًا للمبتدعة من المعتزلة والجهمية وأشباههم.

وفي هذه الآية الرد علىٰ من زعم أن القرآن مخلوق، أو أنه كلام بشر وغيره، فمن زعم ذلك فهو كافر بالله العظيم، كما روي ذلك عن السلف.

وفيها دليل علىٰ أن جبريل نزل به من عند الله، فإنه (روح القدس) وهو أيضا الروح الأمين، وفي قوله: (الأمين) دليل علىٰ أنه مؤتمن علىٰ ما أرسل به، فلا يزيد عليه ولا ينقص، وفيها دليل علىٰ أن الرسول -صلىٰ الله عليه وسلم- سمعه من جبريل وهو الذي نزل به عليه من عند الله، وجبريل سمعه من الله، والصحابة سمعوه من النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-، وفيها الرد علىٰ من قال إن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- سمع القرآن من الله، وفيها الدلالة علىٰ بطلان قول من قال إنه مخلوق خلقه الله في جسم من الأجسام المخلوقة، كما هو قول الجهمية القائلين بخلق القرآن، وفيها الدلالة علىٰ بطلان قول من قال إنه فاض علىٰ النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- من العقل الفعال أو غيره، كما يقوله طوائف من الفلاسفة والصابئة، وهذا القول أشد كفرًا من الذي قبله.

وفيها الدليل علىٰ بطلان قول من يقول: إن القرآن العربي ليس منزلا من الله بل مخلوق، إما في جبريل أو محمد أو جرم آخر كالهواء، كما يقول ذلك الكلابية والأشعرية القائلون بأن القرآن العربي ليس هو كلام الله، وإنما كلامه المعنىٰ القائم بذاته، والقرآن العربي خلق ليدل علىٰ ذلك المعنىٰ.

وهذا يوافق قول المعتزلة ونحوهم في إثبات خلق القرآن.

وفيها أن السفير بين الله ورسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- هو جبريل عليه السلام.

قوله: (بالحق): أي بالصدق والعدل: (ليثبت الذين آمنوا): أي يزيدهم يقينا وإيمانا. قوله: (وهدى): أي بيان ونور وبصيرة، ويطلق الهدى ويراد به ما يقر في القلب من الإيمان، وهذا لا يقدر على خلقه في قلوب العباد إلا الله، قال تعالى {إنك لا تهدي من أحببت} الآية، ويطلق ويراد به بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والإرشاد إليه قال تعالى: {وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم}. انتهى. من ابن كثير، وخصصت الهداية بالمسلمين لاختصاصهم بالنفع بالقرآن؛ لأنه هو بنفسه هدى، ولكن لا يناله إلا الأبرار كما قال تعالى: {هدى للمتقين}.

قوله: (وبشرى): البشرى والبشارة هو أول خبر سار، والبشرى يراد بها أمران: أحدهما بشارة المخبر، والثاني سرور المخبر، قال تعالى: {لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة} فسرت البشرى بهذا وبهذا، قيل: وسميت بشرى؛ لأنها تؤثر في بشرة الوجه، ولذلك كانت نوعين: بشرى سارة تؤثر فيه نضارة وبهجة، وبشرى محزنة تؤثر فيه سوءًا وعبوسًا، ولكن إذا أطلقت كانت للسرور. وإذا قيدت كانت بحسب ما قيدت به. فأما البَشارة بالفتح: فهي نضارة الوجه وحسنه،

....

وأما البُشارة بالضم فهو ما يعطاه المبشر.

وقوله: (ولقد نعلم أنهم يقولون): أي كفار مكة: (إنما يعلمه بشر) والبشر الإنسان ذكرا كان أو أنثىٰ، وهو في الأصل جمع بشرة، وهو ظاهر الجلد، سموه بشرا لظهور أبشارهم خلافا لغيرهم من الحيوان، أي إن الذي يعلم النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- آدمي، وذلك أن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- كان يجلس إلىٰ رجل أعجمي في مكة، وكان ذلك الرجل يقرأ في الكتب السابقة، فقالت قريش: إن هذا الرجل كان يعلم محمدا، فأكذبهم الله -سبحانه وتعالىٰ- بقوله: {لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين}.

قوله: (لسان): أي لغة (الذي يلحدون إليه): أي يميلون ويشيرون إليه أنه يعلم محمدا -صلىٰ الله عليه وسلم- أعجمي أي لا يتكلم بالعربية، والعجمي المنسوب إلىٰ العجم وإن كان فصيحًا.فقوله: (لسان): أي لغة، كما في هذه الآية، وفي قوله سبحانه: {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه} ويطلق اللسان ويراد به الذكر الحسن كما قال تعالىٰ عن إبراهيم: {واجعل لي لسان صدق في الآخرين} ويطلق ويراد به الجارحة، كما قال سبحانه: {لا تحرك به لسانك} الآية. وقوله: (وهذا لسان عربي مبين): أي وهذا القرآن لسان عربي مبين، أي بين واضح فكيف يكون الذي يقوله أعجميا؟!

وَقَوْلُهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٣] .

إثبات الرؤية

قوله: (وجوه يومئذ ناضرة): أي وجوه المؤمنين (يومئذ): أي يوم القيامة.

(ناضرة): بالضاد من النضارة وهي البهاء والحسن، ومنه نضرة النعيم.

قوله: (إلىٰ ربها ناظرة): من النظر بالعين، فيرونه -سبحانه- في عرصة القيامة، ويراه المؤمنون في الجنة، ولا يجوز حمل النظر هنا بمعنىٰ: الانتظار إلىٰ ثواب الله، فإنه معدىٰ بإلىٰ، ولا يعدىٰ بإلىٰ إلا إذا كان بمعنىٰ النظر بالعين.

وأيضًا: فالانتظار لا يليق في دار القرار، فهذه الآية صريحة في أن الله يرىٰ عيانًا بالأبصار يوم القيامة.

وفيها: الرد علىٰ من زعم أن معنىٰ (ناظرة): أي منتظرة ثواب ربها؛ لأن الأصل عدم التقدير، ولأن النظر المعدىٰ بإلىٰ لا يكون إلا بمعنىٰ النظر، لا سيما وقد ذكر الوجه الذي هو محل النظر، وقد تواترت الأدلة في إثبات النظر إلىٰ وجه الله -سبحانه- وتعالىٰ.

وفي هذه الآية دليل علىٰ أن هذه الرؤية خاصة بالمؤمنين.

وفيها دليل علىٰ أن الرؤية تحصل للمؤمنين يوم القيامة دون الدنيا.

ولم يثبت أن أحدا رآه -سبحانه- في الدنيا، قال الله في حق موسىٰ عليه السلام: { قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني } أي في الدنيا.

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣﴾[المطففين: ٢٣] .

وفي صحيح مسلم أن رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم- قال: ((إنكم لن تروا ربكم حتىٰ تموتوا)). واختلف هل حصلت الرؤية لنبينا محمد -صلىٰ الله عليه وسلم-؟ فالأكثرون علىٰ أنه لم يره -سبحانه- وحكاه عثمان بن سعيد الدارمي بإجماع الصحابة.

قال ابن القيم: والناس في إثبات الرؤية وعدمها طرفان ووسط.

فقسم غلوا في إثباتها حتىٰ أثبتوها في الدنيا والآخرة، وهم الصوفية وأضرابهم.

وقسم نفوها في الدنيا والآخرة وهم الجهمية والمعتزلة.

والوسط هم أهل السنة والجماعة الذين أثبتوها في الآخرة فقط حسبما تواترت به الأدلة. انتهىٰ.

قوله: (علىٰ الأرائك ينظرون): الأرائك جمع أريكة وهي: السرر تحت الحجال.

قوله: (ينظرون): أي ينظرون إلىٰ وجه الله.

وهذا مقابل لما وصف به أولئك الفجار في قوله: {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون} فذكر عن هؤلاء أنهم ينظرون إلىٰ وجه الله، وهم علىٰ سررهم وفرشهم وعن أولئك الفجار أنهم يحجبون عن رؤيته. وقد استدل العلماء بهذه الآية، أي قوله: { كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون} علىٰ إثبات رؤية الله، قالوا: لأنه لما حجب أعداءه عن رؤيته دل علىٰ أن أولياءه يرونه.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: ٣٥].

قوله: (أحسنوا): أي في أعمالهم، وقد تقدم الكلام علىٰ هذا الإحسان.

قوله: (الحسنىٰ): أي الجنة. (وزيادة) وهي النظر إلىٰ وجه الله، كما فسرها رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم- والصحابة.

ولما عطف الزيادة علىٰ (الحسنىٰ) دل علىٰ أنها جزاء آخر وراء الجنة، وقدر زائد عليها، وثبت في صحيح مسلم عن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- تفسير الزيادة بالنظر إلىٰ وجه الله الكريم.

قال ابن رجب: وهذا مناسب لجعله جزاء لأهل الإحسان؛ لأن الإحسان هو أن يعبد المؤمن ربه علىٰ وجه الحضور والمراقبة كأنه يراه بقلبه وينظر إليه في حال عبادته، فكان جزاء ذلك النظر إلىٰ وجه الله -سبحانه وتعالىٰ- عيانًا في الآخرة وعكس هذا ما أخبر به عن جزاء الكفار أنهم عن ربهم محجوبون، وذلك جزاء لحالهم في الدنيا، وهو تراكم الران علىٰ قلوبهم حتىٰ حجبت عن معرفته في الدنيا، فكان جزاؤهم علىٰ ذلك أن حجبوا عن رؤيته في الآخرة. انتهىٰ.

قوله: (لهم ما يشاؤون فيها): أي في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، كما في حديث أبي هريرة عن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-:

وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللهِ كَثِيرٌ.

الشرح المهذب على العقيدة الواسطية

قال: ((قال الله سبحانه وتعالىٰ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر)).

ثم قرأ: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون} رواه البخاري.

قوله: (ولدينا مزيد): وهو النظر إلىٰ وجه الله –سبحانه وتعالىٰ– كما قال ذلك علي بن أبي طالب، وأنس، وغيرهم.

وأفادت الآيات إثبات الرؤية، وأنها خاصة بيوم القيامة، وأن رؤية الله –سبحانه وتعالىٰ– من أجل نعيم الجنة وأعظمه..

قوله: (وهذا الباب): أي باب معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله وما يستحقه –سبحانه– من إفراده بالعبادة وترك عبادة ما سواه.

قوله: (في كتاب الله كثير): فقد أفصح القرآن عنه كل الإفصاح، وأغلب سور القرآن متضمنة لذلك، بل كل سورة من القرآن، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته، وهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلىٰ عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد من دونه وهو التوحيد الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته، فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته. وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاؤه وتوحيده.

مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَىٰ مِنْهُ؛ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ.

وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في العقبىٰ من العذاب، فهو جزاء من خرج من توحيده، والقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي الشرك وأهله وجزائهم، فلا تجد كتابا قد تضمن من البراهين والأدلة علىٰ هذه المطالب العالية كما تضمنه القرآن بأسلوب واضح جلي.

فألفاظ القرآن أفصح الألفاظ وأبينها وأعظمها مطابقة لمعانيها المرادة منها، فلا تجد كلامًا أحسن تفسيرًا ولا أتم بيانًا من كلامه سبحانه.

قوله: (من تدبر القرآن): أي تفكر فيه.

والفكر: هو إعمال النظر في الشيء.

وقد جاء في الكتاب والسنة الحث علىٰ التدبر والتفكر.

قال تعالىٰ: {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب }،

وقال تعالىٰ: { أفلا يتدبرون القرآن أم علىٰ قلوب أقفالها}.

إلىٰ غير ذلك من الآيات الحاثة علىٰ التدبر وتفهم معاني القرآن.

قوله: (طالبا للهدىٰ): أي الرشاد (تبين له): أي اتضح (طريق): أي سبيل.

قوله: (الحق): وهو ضد الباطل.